

مجتمع «الفرجة»

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»



يا أيها
الإنسان

مجتمع «الفرجة»

.. وصناعة «الإنسان ذو البعد الواحد»

ياسر بكر

مجتمع «الفرجة»

.. وصناعة «الإنسان ذو البعد الواحد»

E. Book -

- المؤلف : ياسر بكر

- بلد النشر : مصر

- تاريخ النشر : أبريل ٢٠٢١

- عدد الصفحات : ٢٢٨ صفحة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف .

«صناعة الإنسان ذو البعد الواحد» .. _____

الإهداء

.. إلى الباحثين عن معنى المعنى.

ياسر بكر

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

«كل شيء تافه .. هذا هو الاحتطاط بعينة .. صعود الرعاع الذي يعني مرة أخرى صعود القيم الميئة .. يالها من خديعة !! يالها من كذبة كبرى !! إن ذهنية القطيع هي التي تسود على كل ما يمكن أن يكون استثنائياً في هذا البلد ..».

واسيني الأعراج

من رواية «مرايا الضرير»

مقدمة

.. للمرة الرابعة، وربما لن تكون الأخيرة نُعيد التساؤل :

.. ماذا حدث، .. ويحدث للمصريين !!؟

أقول للمرة الرابعة، وربما لن تكون الأخيرة؛ في ظل التغيير الحاد والمتعاطم والمتسارع لأنماط الحياة الاجتماعية في مصر؛ ما بين ليبرالية العهد الملكي قبل انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ونيولبرالية النظام بعد ٣ يوليو ٢٠١٣ بشراكة خليجية نستطيع رصد عدة مراحل للتغيير الاجتماعي في مصر أهمها: النظام الشمولي بعد انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ القائم على (رأسمالية الدولة)، الذي كان من أخطر مفاصله أنه اعتبر المواطنين «عيال الدولة»؛ فمنحهم بسخاء قابلوه بانتهازية، وعبث بثروات البلاد، ومقدراتها، ومروراً بمرحلة «الانفتاح الاقتصادي» التي أدت إلى عمليات فرز طبقي سريعة سعدت بالبعض سريعاً إلى أعلى، وهبطت بالكثيرين إلى أسفل، وما انتجته من نمط «الاستهلاك

المتوحش» في ظل فساد الطبقة العاملة التي تعودت أن تحصل على الكثير من المكتسبات المالية مقابل الولاء، ودون بذل جهد في العمل أو تحقيق إنتاج حقيقي؛ وتزامن ذلك الانفتاح مع صدور قانون الاستثمار، وظهور (القطط السمان fat cats) بمعنى الطفيليين الذين ركبوا موجة الانفتاح، وتاجروا بكل البضائع، وحققوا لأنفسهم ثروات طائلة، وتحول موائهم إلى زئير، وأداروا اللعبة السياسية من وراء الستار، وتلاعبوا بالقوانين، وعبثوا بأمن البلاد إلى الحد الذي بلغ إفشال القطاع العام الداعم الوحيد، والحقيقي للاقتصاد الوطني في سنوات المواجهة مع دولة الكيان الصهيوني، .. وبعد اغتيال الرئيس السادات انكشف المستور؛ .. فالرشاء القادم كذبة كبيرة، والديون كثيرة، وخزينة الدولة خاوية، والمؤامرة مثل «الجبل الجليدي» .. الجزء الظاهر على السطح لا يعلن عن الحقيقة، وحجم المختفي منه ينذر بكارثة لا يعلم مداها إلا الله !!

.. وفُرض على البلاد قانون الطوارئ عشية اغتيال الرئيس السادات؛ مما سهل على الدولة وضع المواطنين أمام خيارين : «إما الخصخصة أو الموت جوعاً».

.. وفي ظل فساد آليات الخصخصة التي أبدعت فاعلياته «خيول الحكومة الهرمة» في عصر الرئيس مبارك الذين تعاملوا مع القطاع العام باعتباره «مال سايب، وبدون صاحب»، وتم تسريح الملايين من «جحافل العمال والموظفين»

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»
لينضموا إلى صفوف «العمالة الرثة»؛ بما جعل سلوكهم أقرب إلى أخلاقيات
البلطجية، واللصوص، والمحتالين، والمتسولين في ظل انخفاض الدخل،
وارتفاع الأسعار بما جعلهم يفقدون الأمن الاجتماعي، والأمن الاقتصادي!!

.. وانتهاء بـ «النيوليبرالية» القائمة على «دورة الرواسب» التي أسس لها
عالم الاجتماع الإيطالي ففريدو بارتيو عبر ثنائية الدماء، والقوة التي اسماها
«صفوة الأسود، وصفوة الثعالب»*(1) بشراكة خليجية في مجالات العمران،
والصحة، والتعليم، والمواصلات؛ فنشأت منتجات الأغنياء من المدن المسيجة
(المحاطة بالأسوار، وأبراج الحراسة، والبوابات الإلكترونية التي لا يتم
عبورها إلا بواسطة الكروت المغنطة أو بصمة الإصبع)، والشواطئ المغلقة،
والكمبوندات، والمستشفيات الاستثمارية المفدقة، ومنتجات الاستشفاء،
ومعامل التحاليل الطبية ومراكز الأشعة، وسلاسل الصيدليات الكبرى التي تتبع
الكيانات الاقتصادية الضخمة التي تديرها مافيا الدواء، والمدارس الأجنبية،
والجامعات الأهلية .

* (1) وردت عبارة : (كن داهية كالثعلب، .. وقويًا كالأسد) في نصائح ميكافيللي للأمير .. بمعنى أن يكون
الأمير ودوداً وحازماً .. تلك العبارة التي أسس عليها ففريدو بارتيو «نظرية الرواسب»؛ - حسب قوله - -
حسب قوله - فنحن مدفوعون بواسطة بعض «البقايا» وبواسطة «اشتقاقات» من هذه البقايا. والأهم من
ذلك يتعلق بالفكر المحافظ والمجازفات، والتاريخ الإنساني هو قصة تبادل هيمنة هذه المشاعر على النخبة
الحاكمة التي تصل إلى السلطة حاملةً الفكر المحافظ بشكل قوي ولكن تتغير تدريجياً إلى فلسفة «الثعالب» أو
المضاربيين. ثم تحدث كارثة، عند العودة إلى الفكر المحافظ الذي تتبعه عقلية «الأسد». يقول باريتو إنه يمكن
كسر هذه الدورة باستخدام القوة، ولكن النخبة تصبح ضعيفة وإنسانية وتبتعد عن العنف.

.. انسحبت الدولة تماماً من ميدان تقديم الخدمات المجانية، واتسعت آلية «التسويق» بحيث امتد مفهوم السوق ليشمل مجالات جديدة في الحياة الاجتماعية؛ إذا أصبحت بعض القطاعات مثل التعليم، والرعاية الصحية والمواصلات، والاتصالات، والفنون مطالبة بإعادة تحديد مفاهيمها حتى تتسق أنشطتها مع مبدأ انتاج السلعة، وتسويقها بين المستهلكين بمعنى تقديمها بسعر السوق بعد أن كانت تقدم مجاناً أو مدعومة، الأمر الذي أسقط الكثيرين في هاوية العوز، والمتاعب، وخلق العديد من المشكلات الاجتماعية، وجعل العلاقات بين الناس محكومة بالصراع من أجل الاسترزاق بالطرق القويمة، والغير قويمة.

وفي هذا الإطار حل مفهوم «الفئات الاجتماعية» بدلاً من مفهوم «الطبقات الاجتماعية»؛ فلم يعد المجتمع يمتلك حالة الاستقرار التي يصنف في إطارها البشر حسب أوضاعهم الاجتماعية إلى طبقات تستمر فترة طويلة حتى تعي وجودها، وتتحول من كتلة فاعلة في ذاتها إلى طبقة لذاتها خاصة أن الوعي يأتي من خارج الطبقة، ويتدفق إلى ساحتها من تكنولوجيا الإعلام، والمعلومات عبر شبكة المعلومات الدولية، ومن خلال تكنولوجيا الهواتف الذكية التي نجحت في تغيير البنى الاجتماعية للبشر من خلال أعمال مخابراتية في ثوب ألعاب اليكترونية.

.. وتواكب هذا المناخ الخانق مع التحديات التي جلبتها شبكة الانترنت؛

.. وصناعة «الإنسان ذو البعد الواحد»
فأصبح شباب الطبقة المتوسطة - المتوسطة منفتحاً على مؤلفات بريجنسكي
(خارج السيطرة - الفشل الكبير - خطة اللعبة - القوة والمبدأ)، وجين شارب
(حرب اللا عنف)، وجوزيف ناي في (القوة الناعمة)، وغيرها من مؤلفات
تفكيك الدول، وإثارة القلاقل فيها بهدف إفشالها .. تلك الكتب التي تتولى:
«أكاديميات التغيير» ببعض الدول المستخدمة استخباراتياً طباعتها، ونشرها،
وتوزيعها مجاناً ضمن مخططات مشبوهة .

وفي المقابل كان من أهم أساليب (السيطرة الصامتة) التي تتبناها الحكومات
على الفئات التي يصعب إدماجها في المجتمع - في الوقت القريب - والتي فُرض
عليها التهميش، والإقصاء، والاستبعاد الاجتماعي استخدام الخطاب الحكومي
للتكنولوجيا؛ فاصبحت التكنولوجيات الخطابية نمطاً من أنماط «تكنولوجيات
الحكومة» التي يجري تطبيقها بصورة منتظمة، ويتولى ذلك تكنولوجيون
محترفون يجرون البحوث في الممارسات الخطابية، ويعيدون تصميمها،
ويقومون بالتدريب على استخدامها ضمن أليات «الهندسة الاجتماعية»
لصناعة مجتمع بلا معارضة، وأساليب «الأنثروبولوجيا التطبيقية» لسوس
الجماهير، وتوجيهها، و«التلاعب بالوعي» بحيث لا تملك تلك الجماهير حق
الاختيار الحر بإرادتها الواعية .

.. واستبقت بعض الحكومات دعوات المطالبة بالتغيير، وانتزعت فتيل

الغضب من خلال الاستناد إلى دعاوى إنسانية، وميثاق شرف أخلاقي قال به - سابقا - إميل دور كيم في معادلة طرفيها أن يتخلى الأغنياء عن غلوائهم وأنايتهم، في مقابل أن يتخلى الفقراء عن احتجاجاتهم، ورفضهم؛ لذلك ابتدعت المجتمعات إجراءات «الحماية الاجتماعية»، و«شبكات الأمان الاجتماعي» لتوفير ما يشبع الحاجات المعيشية الأساسية؛ ليمتلكوا قدرات العيش والمشاركة.

.. مع بداية الألفية الثالثة أصبح التغيير المتسارع هو القاعدة بحيث أصبحت حقائق عالمنا الاجتماعي الذي نعيش فيه، والتي تميزت بالثبات، والاستقرار، ويمكن أن ندركها، ونستطيع تصوير طبيعتها، وحدودها، .. انقلبت الأحوال، وأصبحت الحقائق سائلة، ومتدفقة ما نكاد نحاول إدراكها حتى تنساب من بين أصابعنا مثل الرمال الناعمة لتصبح شيء آخر، وتفلت من اكتمال إدراكنا لها .. الأشياء تغيرت، والتفاعلات قد اكتسبت طبائع جديدة، والكليات - وإن استقرت حدودها - قد تتشكل من عناصر تتباين في طبيعتها الأساسية عن ذي قبل؛ بما أحاطتها بصعوبة الفهم في ظل المطاعن التي أحاطت بعلم الاجتماع باعتباره تخصصاً مشوشاً يضم أكثر من خمسين تخصصاً سوسولوجياً، وعدم استقرار حيثياته العلمية، حيث تبدو مسيرته أقرب إلى المواجهة المستمرة مع مسألة علميته، وهو ما أكده بيير بورديو من أن : «رفض المعرفة، وتوهم معرفة فطرية يتوجدان متجاورين في علم الاجتماع بدل من أن يتعارضا عند الباحثين أو لدى المطبقين له»، والظروف المؤطرة له، والتي تعيد إلى الأذهان بداياته

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»
من حيث تحديد موضوعاته، واختيار فرضياته، واختبار مناهجه، وغيرها من الأمور التي تتصل بوهن دلالاته، وقلّة مردوداته في قراءة الراهن مع تآكل المعايير العلمية لنشاطه الأكاديمي، واصطبأها على نحو متزايد بالبيري وقراطية، والسوق، والتباين الذي يتزايد وضوحه لدى مشغليه بين دور الخبير، ودور الباحث، وكلها تضافرت فجعلت مشهده ملتبساً، ومهدداً بالصعاب، رغم ما تشي به النظرة السطحية من توسع نطاقه، وخروجه من الساحة الأكاديمية إلى عالم الجماهير الأوسع عبر بحوث الاستطلاع، والاتجاهات الموجهة لأغراض دعائية، أو إعلانية، أو سياسية*(٢)؛ بما يوحي بتزايد التشكيك في قدرة هذا العلم على استيعاب متغيرات العصر حيث لم يستطع التنبؤ بسقوط المعسكر الاشتراكي أو انتعاش الصحوة الإسلامية، وعدم امكانية مواجهة مشكلات العصر (الصدمات العرقية، وتصادم التسليح، والزيادة السكانية، وتلوث البيئة، والفقر المتوطن، والعنف اليومي)، أو في المجمل عدم استطاعته استبصار الشأن الإنساني، وتحريره مع تصاعد رهانات تشكيل عالم جديد.*(٣)

العولمة :

كانت المواقف المحرجة تواجه عالم الاجتماع، وبخاصة فيما يتصل

* (٢) جينفر م. ليمنان، تفكيك دور كايم .. نقد ما بعد بعد بنوي، ترجمة محمد حافظ دياب، ط ١، المركز القومي للترجمة، العدد ٢٠٨٥ - القاهرة ٢٠١٣ - ص ١٤
* (٣) جينفر م. ليمنان، تفكيك دور كايم، مرجع سابق - ص ١٥

بالخطابات المؤازرة للعولمة، والتي تقلل من أهمية النظرية الاجتماعية حيث تنظر إليها بصفاتها «إرهاب للحقيقة»، وتعدياً في الأساس على بناء هيكل نظري متماسك لها من خلال إعادة إنتاج المعلوماتية التي توظفها من أجل تحديد أشكال إعادة إنتاج الاستقطاب على صعيد عالمي .

.. وفي ظل ما تردد عن مسميات مختلفة لـ «نظريات اجتماعية» تراوحت من البنيوية إلى الحداثة، وما بعدها، إلى العولمة التي تمثل الموجة الثالثة من الحداثة، وبعد أن طرح عالم الاجتماع الفرنسي جان بودريار مؤلفيه بعنواني: «صناعة العالم»، و«في ظل الأغلبية الصامتة» كتب نيكولاس جين عن مستقبل «النظرية الاجتماعية» كانت الفرضية الأساسية في هذا الكتاب هي أن ماهو اجتماعي يتغير في الشكل بدلاً من الاختفاء .. طرح نيكولاس جين ثلاثة سيناريوهات :

السيناريو الأول : هو أن الاجتماعي لم يكن قائماً ابداً في الواقع (لم يكن هناك أبداً أي شيء لكن مجرد محاكاة لما هو اجتماعي، والعلاقة الاجتماعية)، والسيناريو الثاني: هو أن الاجتماعي يوجد في كل مكان، ويستثمر في كل شيء (يتواجد ضمناً في كل مكان، وليس في أي مكان)، والسيناريو الثالث: ما هو اجتماعي كان موجوداً إلا أنه لم يعد كذلك، ويتعامل مع ما هو اجتماعي على أنه تأثير صورة زائفة في مرتبة الانتاج الكبير، والتي تختفي مع ظهور الأشكال

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

الرقمية للمحاكاة، والانتشار الضخم للإشارات، والرموز، وهو ما يعلن أن ما هو اجتماعي يوجد فقط من المنظور المكاني، ويموت في مجال المحاكاة».

يميل بودريو، وآخرون غيره إلى السيناريو الأخير بأن «الاجتماعي أختفى مع ظهور الأشكال الرقمية للمحاكاة، والانتشار الضخم للإشارات، والرموز.»*(٤)

.. وأصبحت «النظرية الاجتماعية» تواجه أوقاتا عصيبة في ظل السيناريوهات الثلاثة، وارتأى البعض إعادة التفكير في النظرية الاجتماعية برمتها لأسباب أهمها :

١ - أن العالم اليوم يشهد تحولات عميقة في شتى مجالات الحياة حيث تمارس الأشياء، والتقنية هيمنة متزايدة على حياتنا؛ مما انعكس على العنصر البشري الذي لم يعد محور تحليلات علم الاجتماع؛ بما جعل هذا التخصص يواجه الكثير من المشاكل أهمها الوساطة التقنية المتزايدة في العلاقات بين البشر، وزوال الخط الفاصل بين الموضوعات الإنسانية، وغير الإنسانية، والأمور الشخصية، والقضايا الجماهيرية، وفي ظل التكاثر في الأشكال الاجتماعية في

* (٤) نيكولاس جين، مستقبل النظرية الاجتماعية، (حوارات مع سبعة من علماء الاجتماع وأحد علماء السياسة وأحد علماء اللسانيات) ترجمة : يسري عبد الحميد رسلان، المركز القومي للترجمة، ط ١ - العدد ١٧٣٧ - القاهرة ٢٠١٤ - ص ٧ .

الثقافية العالمية الجديدة برز التساؤل عن معنى ما هو اجتماعي؟!*

٢ - يرى البعض من أمثال إيان كريب استحالة وجود نظرية شاملة تستطيع تفسير جميع مناحي الحياة الاجتماعية، وخصوصاً تفسير مكونين أساسيين من مكوناتها، وهما البنية والفعل إذ أن النظرية التي تستطيع تفسير الظواهر المتعلقة بالبنية لا يكون بمقدورها تفسير الفعل البشري.* (٥)

٣ - أن النظرية الاجتماعية تبدو، وكأنها ليس لها نتائج علمية، والأسوء من ذلك أنها تتناول موضوعات نعرفها معرفة وثيقة هي حياتنا الاجتماعية، وتحولها إلى هراء لا يفهم؛ ومما يزيد الطين بلة أن دراسة النظرية الاجتماعية، وتدريسها يتمان في جو يلفه الغموض .

.. واستتبع ذلك اطروحات مختلفة تدور حول إدماج هذا العلم بوصفه «هندسة اجتماعية»، والنظر إليه بوصفه علم للتدخل السريع في الأزمات، أو قصر ترويج «بضاعته» على تأييد مواقف سياسية، أو الاشتغال بالجدال الحزبي، واستطلاع الرأي العام، وتقليص مساهمات المشتغلين به في عملية رسم السياسات* (٦).

* (٥) إيان كريب ، النظرية الاجتماعية من باسونز إلى هابرماس، ترجمة : د. محمد حسين غليوم ، عالم المعرفة - العدد ٢٤٤ ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٩٩٩ - ص ١٤

* (٦) جينفر م. ليمنان، تفكيك دور كايم، مرجع سابق - ص ١٥

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

.. ونتيجة تدني أخلاقيات البحث الاجتماعي مع ارتباط مشتغلين عديدين لهذا العلم بالمؤسسات الحاكمة، وأصحاب المصالح ظهرت شواهد توحى بتدني هذه الأخلاقيات، وعلى رأسها تقنيع مصادر الحصول على المعلومات أو تسويقها بفعل عمليات التجسس، وقرصنة المعلومات، وزاد من هذا الطابع اللا أخلاقي تنامي مافيا نشطة ذات خبرة في مجال البحوث الاجتماعية ممثلة في مراكز بحثية، ودور نشر مدعمة من جهات بعينها لها مصالحها، وليس سراً اتخاذ الكونجرس الأمريكي قراراً بحجب الدعم عن المراكز البحثية الأمريكية التي لا تتخذ موقفاً داعماً للسياسة الخارجية الأمريكية؛ ولكي يتم تنفيذ المطلوب لجأ العاملون في هذه المراكز إلى صيغة ما ترضيهم، وتلقى قبولاً من المتلقي، بما قلل من أهمية «النظرية الاجتماعية»، وبيّز التقليل من أهمية «النظرية الاجتماعية» واضحاً لدى صموئيل هنتنجتون حين يذكر في مقدمة كتابه : «صدام الحضارات .. إعادة صناعة النظام العالمي»*(٧) أن هذا الكتاب لا يهدف أن يكون عملاً في علم الاجتماع، وإنما تفسير لتطور السياسات الكونية بعد الحرب الباردة، وكتاب فرانسيس فوكو ياما بعنوان: «نهاية التاريخ» .. وخاتم البشر» الذي يمثل أخطر خديعة، واغتصاب لمفهوم التاريخ، وحركته ونهايته؛ حيث يتحدث عن شرعية الديمقراطية الليبرالية كنظام حكم بعد أن لحقت الهزيمة بالأيديولوجيات المنافسة مثل الملكية الوراثية، والفاشية في الفترة الأخيرة .. الديمقراطية الليبرالية قد تشكل نقطة النهاية في التطور التاريخي

* (٧) صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة : طلعت الشايب، دار

سطور، ط ٢ ، القاهرة ١٩٩٣

للإنسانية، والصورة النهائية لنظام الحكم البشري؛ وبالتالي فهي تمثل نهاية التاريخ* (٨)

لم يحظ كتاب «نهاية التاريخ» بقبول علماء التاريخ، ولا برضاء علماء الاجتماع الذين ارتأوا أنه ينطوي على تدليس مفضوح، وأنه بمثابة «وثيقة» أو «بيان أول» تعلن به الليبرالية الطائشة عن نفسها، وهي تجدد نفسها، وتزمع استئناف مشروعها وحيدة هذه المرة لا يشاركها أى خبار أيديولوجي آخر أو عسكري أو سياسي أو معارضة قادرة.

.. لم يعد علم الاجتماع قادراً على الإسهام في ترشيد حركة المجتمع كي يضحى استمراراً فكرياً لأنشطته!!، ولم تكن مصر بعيدة عن تيارات الأحداث؛ .. فتغيرت المنظومة القيمية في المجتمع المصري، وأصبحت قيماً مادية بما قلل من معايير الثقة بين الناس، وأن منظومة العدالة الاجتماعية قد شهدت خللاً غير مسبوق؛ فزادت حالات الفساد، والرغبة في الكسب المادي السريع، سواء من خلال تقديم الخدمات المجانية في الهيئات الحكومية بمقابل مادي،

* (٨) فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ .. وخاتم البشر، ترجمة: حسين أحمد أمين، ط ١، مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة ١٩٩٣

وهو ما يُعرف بالرشوة التي يتم إطلاق مُسمى «الإكرامية» في مجال اسباغ صفة: «الحلال» عليها، وتطهيرها الظاهري من «الحرام»، أو تسمى في العامية المصرية بـ «الشاي» لإضفاء صورة «المجاملة الاجتماعية» عليها في إطار التلاعب باللغة، وتطويعها لاستيعاب السلوكيات المعوجة بما يحقق قبول الراشي، ورضا المرتشي !!

.. الخلل أصبح واضحاً، ويمكن رؤية أعراضه بالعين، ودون استقصاء أو مناهج؛ فإذا سرت على قدميك في شوارع القاهرة لمدة ساعة من الزمن ستكتشف بعض مظاهر الانحطاط الأخلاقي الذي يتمثل في غياب مفهوم «المصلحة العامة»؛ ف ٦٠ ٪ تقريباً من مساحة القاهرة تقريباً تشغلها المقاهي والمطاعم، ولم تعد لأرصفة المشاة فيها وجود، والكرجات العشوائية في الشوارع التي يسيطر عليها البلطجية برعاية فاسدين من مسؤولي الأحياء، وأفراد من الشرطة، وصارت البلطجة صيغة من التفاعل في الشارع المصري، وتتجلى مظاهرها في العنف عبر متصل يبدأ بالعنف اللفظي في التفاعل اليومي المحدود، والمنكر الذي يشير إلى عدم تكامل الأنا، والآخر إلى ما يمكن أن يسمى بـ «العنف الأناني» حيث يتبنى صاحبه العنف لتحقيق مصالح أنانية مؤقتة، .. وجميع التعاملات خاضعة للجشع، وقلة الذوق، والمساومة، .. والمسألة تتوقف على «الشطارة» سواء مع بائعي السلع أو مقدمي الخدمات من أمثال مكارية العصر «سائقي التاكسي»!!

.. وصل الأمر بالأسرة المصرية إلى حالة من انعدام «الأمن الاجتماعي» بما اسقطها في مستنقع الهوان المادي، والأخلاقي معاً؛ بسبب هبوط أغلب عناصرها إلى الطبقة الدنيا إضافة إلى تآكل معانيها، وانتشرت على ساحتها قيم الفساد، والانتهازية، و«العشق المنحرف للسلطة» باحتراف «البلطجة» التي صارت أحد آليات الضبط الاجتماعي، والسياسي، وتنفيذ «المهام القذرة» برعاية بوليسية لبعض فئات الطبقة المتوسطة، والتجار، ورجال الأعمال الذي يصعب إتمامها بالقانون، أو أخذ الحقوق من خلال القنوات القانونية المباشرة، ولا يعني هذا أن البلطجة أصبحت دائرة خارج أو ضد حيز العدالة، والإجراءات الجنائية بل أصبحت جزءاً مكماً لها كما أصبحت أحد أذرع الدولة الخفية التي تحميها، وتعفيها من المسؤولية الجنائية، والسياسية، ومع توحش الجهاز الشرطي ككل، وهيمنة سلطته على الدولة، والمجتمع، صارت قوات الأمن بشكلها الرسمي والمؤسسي، وغير الرسمي، واللامؤسسي المؤلفة من مجموعات البلطجية، والمرشدين، أحد أهم عناصر إنتاج الفزع في المجتمع إلى جانب أقسام الشرطة التي تحولت إلى مسالخ بشرية، إضافة إلى تلك الصورة القاتمة، والمرعبة للشارع المصري الذي شهد تنامي ظاهرة النصب، والاحتيال، والاستغلال، والغش، وصارت البلطجة من أهم سماته؛ بما جعل التعامل في الشارع محفوفاً بمخاطر كبيرة لصعوبة توقع رد الفعل من الآخر من العنف، والعدوان الذي يبلغ حد القتل أو السرقة بالإكراه؛ بعدما شهدت فترة الانهيار الكبير إنهيار كل انماط الحياة التي كانت مستقرة، والتي انهارت بسبب التغيير المحوري الذي

وقع، وأدى إلى انهيار «الأسرة النووية»، وشهد المجتمع المصري ما اسمته سوزان فالودي «ازمة الذكورة» عندما أخفق المجتمع في توفير فرص العمل للرجال، وأنقص أجورهم، وطالبهم بالبقاء ساعات أطول في أماكن العمل، وأفقدهم الإحساس بالأمان الوظيفي، والاجتماعي، بما ساهم في تأخر سن الزواج، وجعل رابطة الزواج غير مستقرة نتيجة المجاملة التشريعية للمرأة على حساب الجماعة؛ فارتفعت معدلات الطلاق، ولم تعد النساء يعتمدن على الرجال، وأصبحن يدعمن أنفسهن، وأطفالهن من خلال فرص العمل التي يحرم منها الرجال، وشهد المجتمع المصري ظاهرة «الأب الغائب»؛ فنشأ جيل كامل بدون آباء، ويعاني من الفشل التعليمي، والعنف، والجريمة، ونشأت ظاهرة «أطفال الشوارع»، وتفشي البغاء، .. أدت الضغوط التي فرضت على «الأسرة النواة» إلى تقلص دورها، وطرحت على الساحة أشكال عديدة من «الأسر التوليفية أو المؤتلفه» التي ظهرت نتيجة تأخر سن الزواج، وارتفاع معدلات الطلاق، وانتشار الدعارة، والزواج العرفي، والانجاب خارج شرعية الزواج؛ مما حدا بإدارة الأمن العام بوزارة الداخلية إلى حجب التقرير السنوي عن الجرائم، ومنعت المختصين، والباحثين، والإعلاميين من الاطلاع عليه!! .

.. ومع هذه الطاقة التغييرية المتسارعة، والمتعاضمة بدأت تتغير أشياء كثيرة من حولنا حتى مفاهيم العلم، وتصوراته أصابها التغيير المتسارع فمُلتت بمضامين جديدة أو أصبحت تشير إلى متغيرات جديدة أهمها العلاقة بين التغيير

الخطابي، والتغيير الاجتماعي؛ فقد أصبحت أشكال التغيير باستعمال اللغة تمثل جانباً هاماً من أشكال التغيير الاجتماعي، والثقافي على نطاق واسع؛ فحظيت اللغة بزيادة الأهمية الاجتماعية للتغيير، واستخدمت اللغة في التحكم في مسار التغيير، وتحديد نوعيته؛ فمثلاً حل مُسمى «الفئات الاجتماعية» بديلاً عن مفهوم «الطبقات الاجتماعية» حيث أن الطبقة مرتبطة بامتلاك وسائل الانتاج أما الفئات مرتبطة بتقديم الخدمات، والاعتماد على الاقتصاد الريعي .

.. وأيضاً مع نشأة الجامعات الخاصة ظهرت ممارسات خطابية جديدة داخل الأنشطة القائمة مثل إعادة تسمية «الطلاب» بوصفهم أنهم «مستهلكون» أو «عملاء»، ووصف المناهج العلمية بأنها «بضائع» أو «منتجات»، والطالب منتج بشري يجري إعداده لدعم منظومة ما .

وشهدت المنظومة المصطلحية تحول في حاضِر العولمة إلى عالم من حمولات متباينة تمتلك المفاهيم، والتصورات في إطارها، ومدلولها المراوغ، وهو ما تؤشر له المفاهيم المتصلة بالعولمة مثل: (آلية السوق، وإعادة الهيكلة، وحقوق الإنسان، والشراكة، ونهاية التاريخ، وصراع الحضارات، وحرية الأديان، وحق الأقليات، وتداول المعلومات، والمجتمع المدني).

.. كان مصطلح «المجتمع المدني» من أشهر المصطلحات الخادعة

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

التي وُظفت لإضفاء شرعية على ممارسات السلطة بوصفه مصطلح أمريكي الأصل يجد مرجعيته في أيديولوجيا التوافق على معنى قبول التوافق على معنى قبول جوهر اقتصاد السوق، وممارسة الديمقراطية التعددية الانتخابية مع افتراضه ضمناً عدم الاهتمام بالدولة مقترنا بالدعوة إلى رفع شأن منظمات المجتمع المدني، وإرساء قبول شرعيتها، وصلاحيه ممارستها رغم أنها لا تعدو أن تكون حزم وصل توظفها القوى الإمبريالية .

.. وهكذا يتم تشظي المفاهيم في إطار ما يطلق عليه بيير بورديو بتوسيع نطاق «السوق اللغوي الكوني»*(٩) بما يشمله من احتكارات، وعلاقات قوى، وأشكال من السيطرة لها منطق نوعي يسعى نحو تشميل التصورات التي تبني الوعي بالآخر، ومعرفته بما يعنيه ذلك من إغفال للخصوصيات، وإهمال الحدود .*(١٠)

.. أسهمت اللغة في تغير المجتمعات، واختلاف الثقافات، وانهيار «القيمة المركزية» المهيمنة على أساليب «الضبط الاجتماعي»؟!، وانحدر المصريون إلى حالة مزرية من «التحضر الرث، أوالتطور الرث» أو «فساد العمارة

* (٩) بيير بورديو ، أسئلة علم الاجتماع - حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي ، ترجمة ابراهيم فتحي، دار العالم الثالث - القاهرة ١٩٩٥ - ص ١٣٩
*(١٠) حرص المؤلف الأستاذ ياسر بكر على كتابة فصل بعنوان : «العلوم الزائفة .. وتضليل الجماهير» في كتابه : «الثقافة الشعبية .. وتشكيل العقل المصري» - ص ١٦٩ - ١٩٦ .

وتلوثها» - على حد تعبير - المعماري العراقي رفعة الجادرجي* (١١) أو «التلوث السائل» أو «التحضر غير المنظم» - على حد تعبير- ديفيد هارفي* (١٢) أو «التحضر دون تخطيط أو تفكير»!!؟.

.. كان فساد العمران، وتلوثه البصري، وعدم قدرته على تلبية الحاجات الإنسانية، والوظيفية، والعاطفية، والاخلاقية، والجمالية السبب الرئيس في تنامي ظاهرة «تراجيديات العنف الحضري»، التي ترجع إلى أسباب معرفية قبل أن تكون أخلاقية في إحداث «التغيير السوسولوجي، والفينومينولوجي والإيكولوجي» الذي خُلف ورائه: «مجتمع الفرجة»* (١٣) الذي يقدر: «صنمية السلعة»، و«بذل الجهد الأقل» حسب توصيف الفيلسوف الفرنسي جي دييور، ومكونات ذلك المجتمع شبه البشرية من «الكائنات الزومبية» المعادة إلى الحياة بأسلوب الخديعة، أو «العوريلات المدربة» المتلاعب بوعياها - على حد تعبير- فيليب تايلور بحيث لا تستطع أن تمارس حقها في الاختيار الحر بإرادتها الواعية!!* (١٤)، وهو ما يطلق عليه هابرت ماركوز (أحد رموز مدرسة

* (١١) رفعة الجادرجي، في سببية وجدلية العمارة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٦ - ص ٢١٧

* (١٢) ديفيد هارفي، مدن متمردة.. من الحق في المدينة إلى ثورة الحضر، ترجمة لبنى صبري، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط ١ - بيروت ٢٠١٧ - ص ٢٣

* (١٣) جي دييور، مجتمع الفرجة، ترجمة أحمد حسان، دار شرقيات للنشر والتوزيع - القاهرة ٢٠٠٠

* (١٤) فيليب تايلور، قصف العقول .. الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي، ترجمة سامي خشبة عالم المعرفة - العدد ٢٥٦، - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت أبريل ٢٠٠٠

فرانكفورت في البحث الاجتماعي التي تأسست سنة ١٩٢٣* (١٥): «الإنسان ذو البُعد الواحد»*(١٦)

كان باعثي على هذه الدراسة أمران استرعيا انتباهي هما:

١- أن المدن المصرية أصبحت أقرب إلى «حدائق حيوانات بشرية **The Human Zoo**» .. تسودها العدوانية، والعنف، والبلطجة، والانفجار الجنسي، والتحرش الجنسي، وعدم بسط الحماية على المرأة من قبل أفراد المجتمع، وامتهان كرامتها في وضح النهار في أماكن العمل، والمواصلات العامة، والأنانية، والفساد البيئي ذو الصلات القوية بأسباب ضاربة الجذور في عمق التاريخ!!! أو أنها صارت أشبه بـ «المقابر» حيث تغيب فيها جميع ملامح الحياة الإنسانية، وتخلو من روحها، ومن صور التلاقي بين الناس.

* (١٥) فيدل سليستر، مدرسة فرانكفوت.. نشأتها ومغزاها - وجهة نظر ماركسية ، ترجمة خليل كلفت، المشروع القومي للترجمة، العدد ١٥٤ - القاهرة ٢٠٠٠
* (١٦) هيربرت ماركوز، الإنسان ذو البُعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، ط ٣، دار الآداب بيروت ١٩٨٨.

الباحث :



من خلال منهج علمي قائم على الملاحظة بالمشاركة على عينات متنوعة على سبيل الاسترشاد من مقدمي الخدمات، وسائقي التاكسي بـ (القاهرة والأسكندرية) كان تصرفات (أفراد العينة) يغلب عليها طابع النصب، والسرقة، والاحتيال، والاستغلال، والجشع، والغش أي ما يصفه المثل العامي الشعبي : «اللعب بالبيضة والحجر»!!

٢ - أن القرية المصرية قد تحولت إلى «مجتمع للفرجة» فقط دون مشاركة فاعلة؛ بسبب انهيار الميل إلى التضامن، والمشاركة؛ فغيابهم عن أداء الواجب الاجتماعي، والأسري شبة دائم بلا أعذار، .. وحضورهم بلا فائدة بما يعني أن غيابهم، وحضورهم مجرد إضافة إلى مشهد «العبث»، .. وصارت الحياة في القرى أنماطاً من «التنطع» يلتحف بغطاء من «الورع الكاذب»، والمفصوح في ظل ضعف الروابط المجتمعية، وتفشي التضامن الظاهري غير المنتج، والقائم على المنفعة، والمصلحية، ومبدأ الاسترزاق، و«بذل الجهد الأقل»، ولا يقيمون لأخوانهم وزناً إلا بمقدار ما يعود من نفع في مشاركة الحياة!!

الباحث :

من خلال منهج علمي قائم على الملاحظة بالمشاركة على عينات متنوعة على سبيل الاسترشاد من القرويين من أهالي قريتين إحداهما بجنوب المنوفية، وأخرى بوسط الجيزة لوحظ أن سلوك (أفراد العينة) يغلب عليه صفاقة التجاهل، وافتعال النسيان بمجرد تحقيق المصلحة أو الحصول على المنفعة، كما لوحظ اتصافهم بالبخل، وشح الضيافة، والجشع، والانقضاض على جمع المال، وعدم الإنفاق على متطلبات جودة الحياة من المأكل الصحي، والملبس المناسب، والرعاية الصحية والمسكن النظيف، والاتجاه الشرهة إلى شراء الأراضي الزراعية باعتبارها أحد مظاهر الوجاهة الاجتماعية، وعدم مساعدة المحتاج، ولوحظ أنهم يشعرون بالسعادة لخداع الباحث، وإدخال الغش عليه؛ وهو ما يطلق عليه: «خبث الفلاحين»، وهو موروث ثقافي تاريخي للفلاح «القراري» في التعامل مع الغرباء رصدته الدراسات التاريخية، وتحدثت عنه الأعمال الأدبية، وأهمها مخطوطة بعنوان: «هز القحوف في شرح قصيد أبو شادوف» للشيخ يوسف الشربيني.

اعتمد الباحث على الإصغاء الجيد، والتدوين الأمين بالتزام الألفاظ المنطوقة، والحرص على التسجيل عبر وسائط المالتيميديا في بعض

.. وأيضاً استرعى انتباهي ضعف آليات «الضبط الاجتماعي»، وظهور أعراض كثيرة لـ «التفكك الاجتماعي» يمكن رد بعضها لأسباب داخلية، وأخرى لأسباب خارجية، وحتى لا يعتقد القارئ أنها مجرد تصورات شخصية تحت تأثير حالة مزاجية ما؛ فإنني أؤكد أن لها ما يؤيدها من الدراسات العلمية :

١ - يوجد اتفاق بين مختلف اتجاهات التنظير السوسولوجي على أننا نعيش في «عصر التفكك» حيث انتهى عصر الكيانات الكبيرة، والتماسكة سواء على مستوى الواقع المادي، أو على المستوى المعنوي، والتنظير؛ وتأكيداً لذلك أن تنظير ما بعد الحداثة قد غابت عنه السرديات الكبرى، وكذلك فإن واقع عصر «العولمة» المناظر لعصر «ما بعد الحداثة» على صعيد المعاني شهد تفكك الوحدات التماسكة على مختلف المستويات؛ فقد انتشرت الفردية، والتجزئة على كل الساحات؛ فانهارت العائلة، وصار تفضيل البقاء عند الحالة الفردية حيث أصبح في إمكان الفرد أن يكون قادراً على إشباع حاجاته الأساسية من السوق دون الحاجة لأسرة .

.. وبنفس المنطق تبدلت العلاقات الاجتماعية التي كانت ذات علاقة جماعية

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

بالأساس، وتستند إلى عواطف، ومشاعر الجماعة التي تتحقق هذه العلاقات على ساحتها سواء كانت الجماعات القرابية، أو جماعات الأصدقاء أو حتى جماعات العمل، وحلت محلها العلاقات ذات الطبيعة المنفعية، والمصلحية، وهي علاقات لا تعبر عن عواطف جماعية بقدر ما تعبر عن مطامع فردية أنانية ينشدها أطراف العلاقة من تأسيسها؛ فالعلاقات الفردية التجزئية ذات طبيعة مؤقتة تنتهي بمجرد أن يتحقق الهدف منها، وتعمل تلك العلاقات النفعية الفردية على تفكيك الجماعات إلى أفراد يتجمعون إلى جانب بعضهم البعض، ويشكلون نمطاً جديداً من التجمع، وليس المجتمع .

تؤكد تفاعلات العولمة تلك النزعة إلى التفكيك حيث تعمل العولمة باتجاه تجانس، وتداخل عالمي على الأصعدة الثقافية، والسياسية، والاقتصادية تأكيداً لذلك أنها إذا كانت ترغب في تحقيق حالة من «المساواتية الثقافية» حيث يمتلك كل فرد ذات المعطيات الثقافية، والمعرفية، ومن ثم يصبح مكتف بذاته ثقافياً، وليس في حاجة إلى الآخر .

كان من أهم عوامل «التفكيك الاجتماعي» .. ضعف الوازع الديني

(الحلال والحرام)، وانحساره، والتمدد السرطاني للتدين القشري «الشعبي» الذي بدأ ثقافة «جنينية» قادمة من فجاج الصحراء برعاية جماعة «الأخوان المسلمين» التي جددت شبابها بضم الكوادر الفتية من «الجماعات الإسلامية» إليها، وبتمويل سعودي ورعاية استخباراتية أمريكية بغرفتها في المنطقة (الموساد - والمخابرات السعودية)، .. تلك الجماعة التي بدأت «سلفية محافظة» برعاية، ودعم الحكومة المصرية في عصر الرئيس السادات، ثم ما لبثت أن أصبحت ثقافة فرعية متطرفة تحاول إزاحة الثقافة الوسطية المهيمنة من خلال الانقلاب إلى «سلفية مجاهدة» تتبنى العنف إلى حد تكفير المجتمع، وهز كيان الدولة، وتأسيس الشروخ في جسد الأمة، وعلى الجانب الآخر، ونتيجة لسلوكيات التطرف، والثقافة الفرعية التي تبرره ظهرت على الجانب المسيحي ثقافة رافضة لهذا التطرف، وتطرفت في رمزياتها، وممارستها، واختفاء قيم ومعاني التسامح، والتضامن، والاستقامة، والحفاظ على استقرار المجتمع، وغياب مفاهيم الصواب، والخطأ الثقافي الذي يعد ابداعاً مجتمعياً للعقل الجمعي لتطوير فكرة (الحلال والحرام) من خلال التفاعل البشري، وهو الأمر الذي يشير إلى حالة من «التفاعل الجدلي» بين المجتمع، وثقافته، وهو التفاعل الذي يؤدي إلى تطور كليهما لتصبح الثقافة أكثر فاعلية، والمجتمع أكثر تماسكاً ..

ونتيجة للتسفيه الدائم لـ «ثقافة التدين القشري» من قبل إعلام الدولة، وأجهزتها على من اسموهم: «شيوخ الفضائيات» أو «شيوخ الكاسيت»

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

قامت جماعته بهجمات مضادة من خلال منصات على من اسموهم «وعاظ السلاطين» الذين يطلبون من الناس الصبر على ألام الجوع في الدنيا حتى يأكلوا في الأخرة لحم طير مما يشتهون، وفاكهة مما يتخيرون، وأن يزهدوا في نساء الأرض طمعاً في اللؤلؤ المكنون من الحور العين !!

.. وساعد خطباء التطرف في مهمتهم تبني الدولة لأيديولوجيات قادمة من الخارج لا علاقة لها بمتطلبات الشعب، وأسهمت في الانفصال بين نظام الحكم، وبين ثقافة المجتمع، وفي ظل حالة التمزق الفكري، والتراشق الدائم نشأت: «ثقافة الانحراف»، وهي الثقافة التي تشير قيمها إلى حالة الانهيار الأخلاقي التي بلغها المجتمع سواء بفساد الكبار، وانتشار الرشوة بين صغار الموظفين، وبالتطرف أو عدم قبول الآخر، أو رفض الدولة، وإدمان المخدرات، والتحرش الجنسي بالنساء، والشذوذ الجنسي، والاعتصاب، وزنا المحارم، والقتل، والاستهانة بقيم الاسرة المصرية، وإهانة كبار السن .

ثقافة الاحتجاج :

وساعد النفخ الدائم لـ «خطباء التطرف»، وأداء بعض صحف المعارضة الشكلية التي تحترف «الزنا السياسي»، والتي تتبع أحزاب ليس لها وجود في

الشارع، ويغلب عليها طابع «التشرنق» أو «التفوق» أو «التحجير» بمعنى التزام تلك الأحزاب في حركتها بمساحة حجرة مقرها لا تتعداها إلى خارج جدرانها في نشر ثقافة «الاحتجاج الاجتماعي»!!

ثقافة «الاحتجاج الاجتماعي»، وهو الاحتجاج الذي يشير إلى رفض صيغة العقد الاجتماعي السائدة في المجتمع، والحاجة إلى عقد جديد بعد أن أصبح النظام السياسي عاجز عن الاستجابة لاحتياجات المجتمع، وانتشار ثقافة الاحتجاج بين العمال، والموظفين في مواقعهم، والمهنيين في نقاباتهم، وهو الأمر الذي يشير إلى اتساع «ثقافة الرفض»، وتبلور الثقافات الفرعية، وعجز الثقافة العامة للمجتمع من أن تحافظ على تماسكه الاجتماعي .

نهاية عصر الاحتجاج :

بعد عامين من الفوضى التي أحدثتها أحداث ٢٥ يناير ٢٠١١ تنبعت حكومة ٣ يوليو ٢٠١٣ إلى دور ثقافة الاحتجاج في توقف قلب الحركة داخل البلاد، وشل مفاصل الدولة، وتآكل الاحتياطي النقدي من ٣٦ مليار دولار إلى ١٤ مليار دولار؛ فكان لا بد من كبح جماح قوي التمرد، وغلغ الميادين أمام عناصره المدربة على إثارة الفوضى، وحجب بعض المواقع الداعية والداعمة

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

للفوضى، وأسقاط جميع القوانين التي كانت حامية للاحتجاج بإصدار قانون منع التظاهر بدون تصريح السلطات المختصة، وكشف فساد التنظيمات النقابية الداعمة للاحتجاج، وضبط أداء نقابة الأطباء التي حاولت بعض عناصرها فرض سياسات صحية لا تتفق مع توجهات الدولة، ورفض أن تكون نقابة الصحفيين مأوى لبعض مثيري الشغب من الخارجين عن القانون، والمطلوبين للمثول أمام سلطات التحقيق.

يصف د. على ليلة أحوال الطبقة العاملة التي ما زالت لها فاعليتها في «عصر ما بعد الاحتجاج» :

بـ «أنها تحاول أن تؤمن قوت يومها برغم ظروف العمل التي أصبحت أكثر قسوة، وقوانين السوق التي لا ترحم بالعمل لصالح المجتمع برغم إدراكها أنها ليست لها مصلحة فيه،.. ورغم تردي أوضاعها كثيراً غير أنها بعيدة عن التمرد لأسباب عديدة منها أن الآلة الرأسمالية أصبحت عاتية لا ترحم، والدولة لم تعد درعاً يحمي به، والتنظيمات النقابية أصبحت محكومة أمنياً، ولم تعد قادرة على مد مظلة الحماية إلى أعضائها من جيش البطالة المنتظر على أرصفة الشوارع، وامكانية الاستبدال واردة في حالة التفكير في التمرد والرفض.»*(١٧)

* (١٧) د. على ليلة، النظرية الاجتماعية وقضايا المجتمع .. قضايا التحديث والتنمية المستدامة ، ج ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ٢٠١٥ - ص ٦٠ ، ٦١

يمكن حصر عوامل تشكيل السلوك المصري في العمران المشوة الذي يحاصر أنماط حياته، وأسلوبه في التفكير بداية من الطرز المعمارية التي تعاملت معه باعتباره كائن أقرب إلى الحيوان؛ فشهدت المدن المصرية تشوهات عمرانية، وتلوثات بصرية في المجال الواسع من حيث الطبوغرافيا، والبناء، والإنسان بتصنيفاته، وكثافة وجوده التي تعد من أمراض الزحام.. من وجهة نظر علم النفس العمراني يرى العلماء أن كل من «السكن الاجتماعي» و«السكن الوظيفي» نموذجين لتدهور العمارة العربية التي باتت مشوهة لأن هذا النوع من «العرض العمراني» أو السكني ليس في النهاية سوى مجموعة من الصناديق الأسمنتية الضيقة الخالية من أي تعبير ثقافي أو لمسة جمالية (عبارة عن مرادف فقط)؛ إنه السكن الفقير، ثقافياً، ودلالياً، والذي لا يمكن أن يعيش فيه الإنسان حميمته، ولا أن يستوحي أو يستمد من خلاله أي معنى، وأيضاً لا يمكن أن يتواصل فيه مع غيره بضرب من الخصوصية حيث بات يكشف ما يجري داخله بوضوح ودون عناء؛ إنه شفاف يهدم جدار الخصوصية، ومغشوش إلى درجة «الإقراف»، بالإضافة إلى الغش نجد الجشع، والفساد الإداري، والمالي لمؤسسات التهيئة المجالية، والقارية في كثير من المدن، والذي ليس إلا

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»
جزء من فساد سياسي تقودة طبقة الرعاى السياسى - على حد تعبير - واسينى
الأعرج: (صعود الرعاى الذى يعنى صعود القيم الميتة)* (١٨) .

وهو الأمر الذى يقودنا إلى محاولة تفهم أثر الصناديق الأسمنتية (المسكن)
الذى هو (عبارة عن مراقذ فقط) فى التأثير على جسد، وسيكولوجية،
وتفكير الإنسان فحولت البشر - على حد تعبير - عبد الرحمن منيف إلى ناس
أقرب إلى حيوانات الصحراء مملؤون بالحراشف، والقسوة، والخشونة، ..
جلودهم سمىكة، ونظراتهم زائغة، وأعماقهم بعيدة لا تدرك!!* (١٩)

العمران والبناء

الاجتماعى للجسد :

يرى المنظرون السوسىولوجيون الجسد على أنه مُستقبل إضافة إلى كونه
منتجاً للدلالات الاجتماعية لذلك استخدمت البنائية الاجتماعية مصطلحاً عاماً
تتضوى تحت لوائه رؤى ترى أن الجسد مُشكل بطريقة ما بل مختلق من قبل

* (١٨) واسينى الأعراج من رواية «مرايا الضير»، ترجمة : عدنان محمد، دار ورد للطباعة والنشر،
دمشق ٢٠١١ - ص ١٣

* (١٩) عبد الرحمن منيف، مدن الملح ، الأخدود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - المركز الثقافى
العربى ، ط ١١ - المغرب ٢٠٠٥ - ص ٢٣

.. ووفق ما يفعله المجتمع بالجسد، وما ينحته عليه لذلك فالجسد يستقبل ما يحتمه عليه واقعه الاجتماعي، وما تريده أساليب حياته من ممارسات، وعندما يقال إن الجسد بات مشكلاً، ومختلفاً من قبل المجتمع فلا يقصد به وجوده المادي؛ فالجسد يولد بيولوجياً بقدرة الخالق سبحانه وتعالى، لكن ما يترتب، ويصور ذلك الجسد بأشكال تختلف الواحدة منها عن الأخرى، هو المجتمع أو الواقع الاجتماعي الذي يعيشه بجسده، ووجوده المحسوس .

فالجسد عند فوكو لا يحصل فحسب على دلالات عبر الخطاب بل هو مشكل كلية عبر هذا الخطاب؛ فيصبح ذلك الخطاب عملياً عبارة عن نتاج مشكل اجتماعياً طبعاً بشكل غير محدود، وغير مستقر بدرجة عالية.* (٢٠)

أحوال السكن، والأحوال الصحية، واختلافها تغير كثيراً من مظهر الجسد؛ فالذي يعيش في ظروف صحية جيدة يتحور شكل جسده بصورة الجسد الصحيح الخالي من الأمراض، والذي يتلى بظروف معيشية قاسية يظهر ذلك بأحوال جسده الذي يصبح غير مقاوم لبيئته، ولعمله، ولممارسة سلوكياته، وعاداته مع

* (٢٠) د. مازن مرسل محمد، حفريات في الجسد المقموع .. مقارنة سوسولوجية ثقافية، ط ١ ، دار

الأمان - الرباط ٢٠١٥

ابناء جنسه في المجتمع .

السكن في منازل ذات ظروف معيشية رديئة، ولا تملك أي مقوم من مقومات العيش الصحي، والمطابق لمواصفات السكن من شأن كل ذلك أن ينعكس سلباً على الظروف الصحية الخاصة بالجسد داخلياً، وخارجياً، داخلياً فيما يظهر بالجسد نتيجة الظروف غير الملائمة، من علامات تشير إلى ضيق الحال، وتعكر الحالة النفسية، وعلامات مرضية ربما أخرى .*(٢١)

العامل الثاني : اللغة وهي العامل الأهم، والذي يمكن أن نميز على أساسه كل أصناف البشر، والتي لا يمكن لها أن تتدوال، وتظهر جسد الإنسان، والمتمثل بفمه، وعن طريق اللسان؛ إذ نلاحظ أن الفرد يتكلم بلسانه، ويظهر حركات على وجهه عندما يتكلم بلغة معينة، وعندما يتكلم بلغة أخرى تتغير بعض تقاسيم وجهه، وكذلك الحال مع اللغات الأخرى .

.. وقد ولدت الأحياء العشوائية حالة من الارتباك اللغوي الذي جاء عبارة عن خليط من العامية الرديئة، والألفاظ النابية، ولغة الطنين التي لا تحمل أي معنى Buzz Word الذي بدى واضحاً في لغة الشارع، ولافتات المحلات .

*(٢١) د. مازن مرسل محمد، مرجع سابق - ص ٥٨

ثم كان العامل الثالث : «ثقافة الفقر» باعتبارها ثقافة «جنينية» تبلورت في العشوائيات، ومساكن الصفيح، وسكنى القبور، والسطوح لتصبح إحدى «الثقافات الفرعية» التي انتجت «أغاني المهرجانات»، و«أفراح الجمعيات»، ووظفت «العنف الأناني»، و«البلطجة» ليصبحا من آليات الضبط الاجتماعي.

هذا الكتاب مقدمة إجمالية لدراسة موسوعية تتجاوز حدود التخصصات، وتتخطاها إلى الفضاء المعرفي الواسع بمختلف معطياته، ووسائطه المتداخلة في مقاربة بين المادي، وغير المادي من دوافع «التغيير الاجتماعي» من خلال البحث في ثلوث العلاقات الوثيقة بين العمران الذي لا يتكلم لغة أهله، وفساده، وتشوّهاته في المجال البصري الواسع باعتباره جملة بصرية مفيدة تصب في خطاب يغذي حالة الارتباك اللساني بنتوءات لفظية تعبر عن سياقات اجتماعية مختلفة تدعم التدهور الثقافي المتمثل في «ثقافة الفقر» التي حولت المواطن المصري إلى مسخ من «هجين ثقافي» يعيش على هوامش ثقافتين، ومجتمعين، لكنه ليس عضواً كاملاً في أحدهما؛ فالهامشية ثقافة فرعية تختلف عن الثقافة المهيمنة.. يرى بعض الأنثروبولوجيين أن الجماعات الهامشية هي جماعات قبلت قيم الثقافة المهيمنة لكنها عجزت عن وسائل تحقيقها، أو منعت من ذلك بفعل عوامل الاستبعاد الاجتماعي، وأعراض «التفكك الاجتماعي»، وضعف «آليات الضبط الاجتماعي»، وأثارها التي خلفت «مجتمع الفرجة».

التلوث البصري ليس مقصوراً على المدينة فقط بكل تشوهاتهما من تجاوز أنماط معمارية متناقضة إلي تشويه الرؤية البصرية بالعديد من اللافتات، والإعلانات بالإضافة إلي الاستخدام المبهر للأضواء، والألوان، والأشكال؛ فالتلوث البصري في الريف يعد من أوسع أنواع التلوث الناتج عن تنافر الأشكال، والألوان، ومواد البناء، وتراكم المخلفات الزراعية من الحطب، والقش، وروث البهائم، والقمامة، والأسمدة العضوية التي صار التخلص منها عبء بعد الإسراف في استخدام الأسمدة الكيماوية، ومن أهم أشكال التلوث البصري في الريفي تدهور البيئة الطبيعية، وتجريف الأرض، والتصحر، واختفاء المعالم المميزة للبيئة الريفية.

.. تؤكد الأبحاث الطبية على أثر المؤثرات البصرية على الانفعالات التي تنتج عن رؤية «مؤثر بصري سلبي»، وهي عبارة عن إزدیاد في إفراز مادة الأدرينالين، وهی المادة الهرمونية التي تفرزها الغدة النخامية مترجمة بذلك ما رآته العينان، وأرسله المخ – فتستحث الغدة النخامية لتفرز الهرمون الذي يرفع بدوره من زيادة حموضة المعدة، ويرفع مستوى ضربات القلب، وبالتالي سرعة الانفعال كما قد تؤدي رؤية «مؤثر بصري إيجابي» بالشعور بالجمال، وبالتالي إلى زيادة إفراز مادة الكورتيزون في الجسم الذي يقلل من الإحساس

بآلام الجسم أو مفاصله، ولاسيما لمن يعانون من أمراض الروماتيزم، وبالتالي يؤدي إلى الشعور بالراحة والهدوء النفسي.

.. وهو ما يفسر لماذا زادت مساحة العدوانية، والسلوكيات الحادة بين مجتمعاتنا، وبخاصة بالمناطق العشوائية، والشعبية المكتظة بالسكان، وبالمؤثرات البصرية السلبية عنها في المناطق المخططة، والجديدة التي تتمتع بقدر من المؤثرات البصرية الإيجابية؛ فالجمال هو الإدراك للعلاقات المريحة التي يستجيب لها الإنسان في شتى العناصر سواء أكانت متوفرة في الطبيعة، أو كانت من صنع الإنسان، وأن الإدراك البصري يعنى كيفية تمييز، واكتشاف جميع التفاصيل لعناصر البيئة المحيطة بنا.

يحاول الكتاب أن يقدم تفسيراً لعدد من الظواهر التي باتت اليوم علامة واضحة، ومؤشراً دالاً على «الباثولوجيا الاجتماعية»، وعلى «تشوهات حياتنا المدنية» التي تعتبر نتيجة طبيعية لـ «التحضر الرث» دون تخطيط أو تفكير.

ياسر بكر

الأسكندرية - ١ أبريل ٢٠٢١

الفصل الأول :

**العمران .. اللغة .. الثقافة
.. وتشكيل العقل المصري**

.. «التحضر الرث» هو التحضر الناجم عن العمران المتخلف بكل ما يحمله من تلوّثات الأنساق البصرية، وتشوهات مجالية على مستوى «الهوية العمرانية»، واعتراباً، وتفككاً لغوياً، واضطراباً تواصلياً على مستوى «الهوية اللسانية» عبر أساليب الخطاب المبتذلة، وشيوع «ثقافة الفقر» بما تحمله من «انحطاط سلوكي»، وعنف، وتمييز، وعنصرية، وغش، واستغلال في حيز مكاني قدر يفقد إلى ثقافة معمارية قائمة على هندسة ملئ الفراغ بالجمال، ويفتقر إلى الخدمات الحضارية التي تقوم عليها دعائم الحياة الإنسانية الكريمة من المسكن الصحي اللائق، والنظيف، والأنيق، والمُرفق بخدمات الصرف الصحي، والكهرباء، والمياه النقية الصالحة للشرب، وأن تكون تلك المرافق قادرة على أداء وظائفها بكفاءة، وفاعلية .

.. ويعاني ذلك الحيز العمراني القذر من الزحام الشديد والفقر بما يجعله يطور نسقاً مضطرباً من العلاقات الاجتماعية بين سكانه من ناحية، وسكان الأحياء الأفضل حالاً من ناحية أخرى، بحيث يقع ساكنوا هذه الأحياء القذرة ضحية للظروف السكنية القاسية واللا إنسانية؛ مما يؤدي إلى أمراض اجتماعية متعددة تؤدي إلى الانحراف والجريمة؛ بما يعنى أن تصبح هذه المجتمعات

تعاني العديد من الأزمات أهمها «أزمة نسق القيم».* (١)

.. يطلق إدريس مقبول على «أزمة نسق القيم» مُسمى : «آلة المشاعر السوداء»؛ ذلك أن المدينة العربية الحديثة - من وجهة نظره - تصنع المتناقضات السخيفة، وتستفيد منها وتتغذى عليها؛ فـ «وراء كل الأوضاع المختلفة»، وغير الطبيعية، أكداس من مشاعر الغضب، والحقد على النازحين إلى المدن؛ لكونهم من وجهة نظر سكان المدن سبب كل آلام المدينة، وأوجاعها، وأمراضها، وفافتها، وتسري هذه المشاعر الهوجاء، والسوداء في شرايين المدينة، تلاحق ضحاياها في جميع الهوامش، والأطراف، وعند الملتقيات كلها، وتسبب جروحاً غائرة، وتمحو بقايا الشعور بالانتماء إلى المكان، وتذكر النازحين بأنهم غرباء باستمرار، ولو حازوا بطاقات هوية، وشهادات سكنى في أحد أحياء المدينة التي تستنقلهم.* (٢)

يلخص مقبول أوجاع المدينة فيما أسماه «باثولوجيا التمدن»، أي مرض التمدن، الذي يتمثل من وجهة نظره في أزمة العمارة بسبب دخول فن العمارة الغربية، وظهور أسنة جديدة (الناطقين بالإنكليزية)، وانتشار العمارة الرديئة بشكل أكبر، ما تسبب في انهيار المشهد المعماري العربي الأصيل .

* (١) محمد الجوهرى، دراسات انثروبولوجية معاصرة، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٩٨
* (٢) إدريس مقبول ، الإنسان والعمران واللسان: رسالة في تدهور الأنساق في المدينة العربية، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات - الدوحة ٢٠٢٠

.. يفضل د. محمد الشاهد في أطروحته بعنوان : «الحدائثة الثورية»^(٣) ..
العمارة، وسياسات التغيير في مصر ١٩٣٦ - ١٩٦٧» أن يطلق على التحضير
الواسع في المجتمع المصري في منتصف القرن العشرين مسمى: «المكان
المصري» بدلا من من لفظة «العمران» للتعبير عن مفهوم عمارة المكان
ذلك الاتجاه الذي ركز على انتماء العمارة للسياق المكاني بمؤثراته الطبيعية
والحضارية التاريخية من جهة، والنتاج المعماري والإنسان الشاغل لذلك
المكان من جهة أخرى، والتي وصفها تشارلز جنكس Charles Jencks على
أنها آلية، أو صيغة للتعامل مع النتاج؛ ولما كانت البلاد تمر به من تغيير سياسي
بعد انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢، والانتقال السياسي من الملكية إلى الجمهورية
العسكرية Stratocracy بما أسهم بقصد أو بغير قصد في سياسات الشارع،
والتغيير السياسي، وبناء الذوات، والهوية المصرية الحديثة حين زعم نظام
الحكم أنه نظام ثوري، واتخذ من من العمارة محاولة للإستجابة للحاجة الملحة
للتنمية، وليدلل على حدائثه !!، وأن يبرز التغييرات المعمارية، والحضارية لما
بعد الكولونيالية!! دون فهم تلك المساحات التي تقدم منظورا لما أطلق عليه بول

* (٣) يشير مصطلح «الحدائثة الثورية» إلى مرحلة العمارة الكلاسيكية التي بدأت مع نهاية القرن ١٧،
وعلى وجه التحديد في فرنسا، والتي اتصفت بالعقلانية، وبساطة الخطوط، والأشكال، والاهتمام بالتفاصيل
المعمارية في التصميم المستلهم من الأنظمة المعمارية اليونانية الرومانية معتمدة في تشكيلها المعماري
على استخدام الأشكال الهندسية مثل المكعب، الدائرة، الاسطوانة، الهرم، الكرة .

.. ولم تكن في مصر في المرحلة المشار إليها (١٩٣٦ - ١٩٦٧) حدائثة معمارية، ولا ثورية؛ فقد كان جزء
من المرحلة يمثل ليبرالية النظام الملكي، وجاء من بعده انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الذي كان ابداعاً أمريكياً
خالصاً، وكانت ممارسات القانمين عليه امتداداً للممارسات الاستعمارية .

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»
رينبو : «الحدائثة الوسيطة»، وهي الأرض التي ندر البحث فيها، والتي تقع بين الثقافة العليا، والحياة العادية في ايقاعها التقليدي.

.. مصطلح «المكان المصري» بما يشغله من حيز عمراني بما يعني المادية المناسبة للحياة الحضرية في مواجهة السياسة، والثقافة الوطنيتين حسبما يؤكد مشيل فوكو: «عصرنا هو عصر يتخذ فيه المكان لنا شكل العلاقات بين المواضيع».*(٤)

.. وهو ما أطلق عليه د. عبد الوهاب المسيري في أطروحته بعنوان : «فئة التحيز» مفهوم «إنتاج المكان»، ومنطق تولد العلاقات الإنسانية التي تنسج وتتشابك خلاله .

يرى د. المسيري أن العمارة نتاج مادي، ولكنه شديد التعقيد، والتركيب، ومحمل بالصفات، والعلاقات الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والاقتصادية بالإضافة إلى القيم الجمالية، والتشكيلية بما يجعلها مرآة للحضارة الإنسانية بما يتطلب نموذجاً مركباً لتفسيرها وفهماها. *(٥)

* (٤) د. محمد الشاهد، «الحدائثة الثورية .. العمارة، وسياسات التغيير في مصر ١٩٣٦ - ١٩٦٧، ترجمة : أمير زكي، المركز القومي للترجمة، العدد ٣٢٤٣ - القاهرة ٢٠٢٠ - ص ٢٤
*(٥) د. عبد الوهاب المسيري وآخرون، إشكالية التحيز.. رؤية معرفية ودعوة للاجتهد، ط ٢، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٩٦

.. وهذا النموذج المركب للتفسير، والفهم يستلزم قراءة عابرة لتخصصات أمراض المدينة، وتلتزم قدرأً أكبر من الجرأة، وقدرأً أقل من الانغلاق في تجاوزها حدود القطاعات المعرفية الصارمة، وفي مقاربتها المادي، وغير المادي من أعراض «مرض التمدن» الناجم عن عدم الانسجام، والتفكك في الفضاء المدني، من أجل بحث العلاقة بين اللساني، والاجتماعي؛ فإذا كانت اللغة طريقة تواصلنا واتصالنا بالآخر؛ أي التعبير الأولي عن كياننا الرمزي والثقافي، فإن العمارة هي المعتكز الذي تتجسد فيه خيالاتنا، فوجودنا المادي (العمارة) لا يقل أهمية عن وجودنا الرمزي (اللغة). .. للمدن لغتها، والتواصل داخل المدينة نشاط إنساني يتميز بقدر من التعقيد، وبما يحمله من نسق من حياة «العلامات السيميائية» التي تخفي في كثير من الأحيان خلاف ما تظهر، وتتكلم عمرانياً عن أشياء تحجبها من أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع!!

.. لم يكن لضباط انقلاب يوليو ١٩٥٢ الذين اندفعوا برعونة إلى سدة الحكم بقوة السلاح، وتصدروا واجهة المشهد في مصر قدر من المعرفة أو الثقافة سوى مجموعة المعارف البسيطة التي وفرتها الثقافة المتاحة لطلاب المدارس الثانوية العامة آنذاك!!؛ فدفعوا بالبلاد إلى «كارثة» التغريب، وفقدان الهوية، وطمس السجل التاريخي المعماري المصري، وأصبح التغريب مبدأ يرمز إلى التقدم، والتطور، وأصبحت العمارة المصرية فاقدة لهويتها من خلال فقدانها لمقوماتها النابعة من القيم الإسلامية، والمعبرة عن البيئة الطبيعية، والاجتماعية

.. وصناعة «الإسنان ذو البُعد الواحد»

وحتى المناخية بعدما أولت الدولة اهتماما كبيرا لتوفير مسكن حكومي (المساكن الشعبية - حزام المدن الجديدة حول القاهرة) لطبقة محدودي الدخل يلائم إمكانياتهم بالبناء خارج المدن لتوفير مسكن منخفض التكاليف، وقد اعتمدت طرق تجميع البلوكات السكنية على توفير أكبر عدد ممكن من الوحدات السكنية؛ فكانت النتيجة بلوكات جاءت في ترتيب تكراري متوازي ممل ليس له هوية محددة، وبعدت العمارة السكنية عن استخدام، وتطوير الطابع التقليدي للعمارة المتوارثة؛ بما يلائم احتياجات، ومتطلبات الأسر، وبما يتوافق مع التغييرات التي حدثت لها؛ لأن بعض أدياء الفكر يعتبرون أن العمارة التراثية تمثل تخلفا عن المعاصرة؛ لذلك يحاولون البعد عنها، واللاحق بركب الغربية لأنها – من وجهة نظرهم - ترمز إلى التقدم، والحادثة.

«الحادثة»، وما بعد «الحادثة» :

يرى بعض المفكرين أن زمن ما بعد الحادثة هو زمن «استحالة التحديد»، ومن هنا يظهر أن مصطلح ما بعد الحادثة مصطلح مناهض للتحديد، ومتمرد على كل تأطير .. ظهر مصطلح الحادثة سنة ١٨٧٩، وكان أول من استخدمه ج. ك. هيسمانز J.K. Huysmans، ووظفه ر. بنويتز R.Pannwitz قبل الحرب العالمية الأولى في كتابه : «أزمة الثقافة الأوربية»، كما يعود الفضل

إلى المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي سنة ١٩٤٧ في كتابه «دراسات تاريخية» إلى إعادة المصطلح حيث وصف المجتمع الغربي باللاعقلانية، والفوضوية واللامعيارية، وذلك بسبب أفول دور البرجوازية في التحكم بتطور الرأسمالية الغربية منذ نهاية القرن ١٩، وحلول الطبقة العاملة الصناعية محلها، وهو ما رآه انقلاباً بل انحطاطاً للقيم البرجوازية التقليدية .

.. وانتشر المصطلح في الأدب الأمريكي في الستينيات، والسبعينيات من القرن العشرين، وأصبح مقبولاً في عدد من المجالات المعرفية، وخاصة في الهندسة المعمارية حيث يقول المعماري الأمريكي تشارلز جنكس Charles Jencks في كتابه بعنوان: «لغة العمارة في ما بعد الحداثة» الصادر سنة ١٩٩٧: «إن الهندسة المعمارية الحديثة قد ماتت في سان لويس بولاية ميسوري يوم ١٥ يوليو ١٩٧٢ في الساعة ٣,٣٢ تاريخ تفجير العمارة الوظيفية».* (٦) عندما أصبحت العمارة التفكيكية deconstruction architecture هي الاتجاه الأكاديمي الرسمي في بعض أقسام العمارة، والأدب، والفن في الجامعات الأمريكية .

النقل والاستنساخ :

استنسخت حكومة ضباط يوليو ١٩٥٢ نماذج معمارية شائه لحل مشكلة

* (٦) د. الزواوي بغوره، ما بعد الحداثة والتنوير.. موقف الأنطولوجيا التاريخية - دراسة نقدية، ط ١ - دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت ٢٠٠٩ - ص ١٣

.. وصناعة «الإسكان ذو البعد الواحد»
الإسكان دون وعي بما يحدثه النقل، والاستنساخ من اختراق للثقافة المحلية،
واستلاب لفكرها الفعال؛ بما أفسد البيئة، وفاقم من تلوثها بتكتلات خرسانية لا
تتفق مع طبيعة المناخ الحار، وأفقد العمارة وظيفتها الحوارية، وأصبحت معالم
العمارة مادة جامدة بلا حياة، وبلا حس إنساني، وأفقد المواطن أداة التعامل
الحسي مع الآخر، وأصابته ببلادة الفكر؛ وأفست الحوار المتبادل الذي يؤمن
التماسك الاجتماعي .

.. وبأسلوب النقل بدون فهم أن العمارة تؤلف مقوماً متأسلاً في سلوكيات
الفرد مع البيئة الاجتماعية المتمثلة في المسكن، ودور العبادة، وبنيات الحكم،
والسوق، وغيرها من بنى أخرى، أى أنها أساس في تفعيل القدرات الحسية
البصرية، والوجدانية في معيشته اليومية، إضافة إلى وظيفتها كأداة ترضي
الحاجة النفسية؛ فهي أداة فعالة في الحوار العاطفي، والوئامي في تكوين العاطفة
الجمعية للمجتمع، وبقدر ما يسخر فكر المجتمع العمارة في إفعال حوار جمعي،
وصحي، وشفاف بين مختلف أفراد الجماعة، بقدر ما تكون أداة فعالة في تحقيق
تماسك اجتماعي صحي.

استنساخ تجربة مارشال :

.. كان من بين النماذج التي تم استنساخها مشروع مارشال في إقامة (المساكن

الشعبية والمدن الجديدة)، وهو المشروع الاقتصادي لإعادة تعمير أوروبا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية الذي وضعه الجنرال جورج مارشال رئيس هيئة أركان الجيش الأميركي أثناء الحرب العالمية الثانية، ووزير الخارجية الأميركي منذ يناير ١٩٤٧، والذي أعلنه بنفسه في ٥ يونيو ١٩٤٧ في خطاب أمام جامعة هارفارد عبر إقامة بنايات تحتوي على عدد من الشقق السكنية لحل أزمة الإسكان انتشرت في كل المدن، والقرى التي سرعان ما ظهرت نتائجها الكارثية؛ مما حدا بالدول المتقدمة إلى منع إنشاء هذه النوعية من المشاريع إلا ضمن ضوابط معينة؛ لأن الدراسات، والأبحاث أثبتت فشل هذا النوع من الإسكان لأسباب عديدة منها أنها تسبب خلل في البيئة العمرانية نتيجة تفكك النسيج العمراني، وعدم توفر الخصوصية، وارتفاع معدلات الجريمة، وانعدام العلاقة بين الجيران، وزيادة المشاكل بينهم، .. ولم يتوقف المسؤولون في مصر عن إقامة نمط العمارة المستنسخة من تجارب الغير بما يتناقض مع واقعنا، واستبدال قيمنا، ومفاهيمنا الأصلية بنماذج مستوردة!!

.. كان الخط الفاصل بين المعماري، والجنرال العسكري مشوشاً في ذلك الوقت، وقد أنتج ذلك النهج المعماري الشائه مدن خالية من السكان، وصارت مأوى للصوم، والشواذ الذين يبحثون عن ملاذات آمنة لممارسة أفعالهم بعيداً عن عيون الرقباء، والمجرمين، والخارجين على القانون، والمشردين .

.. وصناعة «الإنسان ذو البعد الواحد»

.. ومع تزايد أعداد المهاجرين من الريف طمعاً في اقتناص الفرص التي أعلنت عنها آلة الدعاية التي قام بها انقلاب يوليو ١٩٥٢ المتحكم في وسائل الدعاية، والإرشاد زادت أعداد المهاجرين من الريف باعتبارها قوة للعمل الشاق في صفوف الرجال، والرخيص في صفوف النساء .

سكان السطوح و«القرافات» :

كما ظهرت على السطح مأساة «سكان السطوح»، و«القرافات» وهي مأساة إنسانية أو مأساة «تناسية» بلغة اللسانيات حيث يدخل «نص الحياة» ليتشابك مع «نص الموت»؛ فيشكلان تراجيديا هي بالمنظور الإنساني مأساة بكل المقاييس نتيجة إفلاس السياسات، وموت الضمير، وهي ظاهرة حملت معها تحلل البنى الإدراكية لأعظم فكرة في الوجود فكرة الحياة، والموت، وسقوط جدار القدسية الذي كان يلف الموت عبر الزمن، وابتداءً واضحاً لحرمة الموتى.

.. في تقرير الأمم المتحدة عن سكان المقابر عن ثلاث حالات من دول عربية هي: مصر (سكان المقابر في مدينة القاهرة)، وتونس (سكان ولايات القصرين والقيروان وسيدي بوزيد في إقليم الوسط الغربي)، ولبنان (سكان حي

التبانة في مدينة طرابلس) .. يؤكد التقرير أن القاهرة تعد من أكثر المحافظات لا مساواة من حيث تقديم الخدمات الأساسية، والعامه، ونتيجة لذلك تزداد اللا مساواة المكانية سواء في منطقة المقابر حيث يفتقر السكان إلى خدمات الصحة والتعليم، والسكن، ويؤدي أغلب سكان المقابر أعمال هامشية في القطاع غير الرسمي أو الموسمي أو اليومي بالإضافة إلى الوصمة الاجتماعية التي تلحق بهم لكونهم من سكان المقابر، وانعدام الأمان، والخوف الدائم لدى السواد الأعظم منهم، وإلى تعميق التفاوت واللامساواة الاجتماعية التي يعانون منها.* (٧)

.. في حالة مصر يفند التقرير وضع سكان المقابر الذين يتجاوز عددهم ١.٥ مليون نسمة، ويرصد التقرير المحاولات الحكومية المنكرة لاستقطاب هذه الشريحة دون الوصول إلى تحسين أوضاعها، أو إخراج السكان من الفقر المدقع إلى مواقع أفضل في سلم التطور الاجتماعي، ويفصل التقرير الأشكال المتعددة للسكن في المقابر حيث يلعب العامل الجغرافي دور أساسياً في تحديد شكل السكن، وبالتالي مستوى المشاركة، والقدرة على نيل الحقوق؛ فالسكن المتداخل، والسكن في أحواش المقابر، وفي الجبانات دور في تحديد الأوضاع الاقتصادية، والمهنية لهؤلاء السكان.* (٨)

* (٧) الأمم المتحدة، تقرير التنمية الاجتماعية الثالث، عدم إهمال أحد : ادماج الفئات المهمشة في بعض البلدان العربية - الأمم المتحدة بيروت ٢٠١٩ - ص ٤
* (٨) الأمم المتحدة، مرجع سابق - ص ٥

التريف :

.. وبدأ اكتساح القيم الريفية للمجال الحضري في المدينة الذي بدا واضحاً في الحضور التواصلي الصادم لصورة الريف في السياق، والمقام الحضري من أسواق، وحظائر لتربية الحيوانات داخل النسيج العمراني للمدينة الحديثة إضافة إلى البطالة التي دفعت كثير من المهاجرين الريفيين إلى نقل أدواتهم الثقافية، وانشاقهم التواصلية، وركام أشيائهم، وصنائعهم، وعرباتهم المجرورة، وحرفهم إلى عقر المدينة الحديثة، والتجول بوسائل نقلهم الريفية في قلب المدينة العربية الحديثة مع ما يصاحب ذلك من انتشار أسواق فوضوية لا تخضع لأي نظام أو تهيئة مسبقة بما يعكس اختلالاً صارخاً بين «الإنسان»، و«الوظيفة» في المدينة هو ما يطلق عليه بعض علماء الأنثروبولوجيا «التحضر المفرط» الذي باتت عليه بعض المدن كما يعكس انفجاراً يومياً، وإدانة مستمرة لسياسة التخطيط العمراني في العالم العربي لتصبح شاهدة على «المدينة الظالمة» حيث المساكن الصفيحية التي تشخص التفاوت الطبقي، والصراع الاجتماعي، وافتقار الناس البسطاء إلى أبسط حقوق الإنسان في حياة يصبح فيها «الصفوح لساناً ناطقاً في نقل المأساة الإنسانية» للسكان على حافة المدينة، وفي شقوقها حيث يتضاعف البؤس مضروراً في الشعور بالحرمان بما جعل الفئة المهاجرة إلى فضاء المدينة تنن تحت وطأة نظام من العلامات الاجتماعية المدنية التي

تكس البشر في مدن الصفيح حيث لا رحمة، ولا شفقة، ولا أخوة بل إجرام في وسط ناس أنانيون يجهل بعضهم بعضاً، وسط انحلت فيه الأسرة، وقست فيه القلوب، وعزت فيه المشاعر، وقلت فيه العواطف الحانية .. وسط لم يختر هامشيته برغبته بل أن المدينة القاسية تفرض عليهم هامشيتهم، وتتولى طحنهم، وتدخلهم في «زمن مضطرب» يفقد فيه عناصر فطرتهم، وأصالتهم، وانتمائهم، ومعها يفقد بعض من حريته لمصلحة إكراهات المدينة، وضغوطها .

يؤكد تقرير الأمم المتحدة أن عدد سكان العالم الذين يعيشون في المناطق الحضرية لأول مرة صار أكثر من نصف سكان العالم في عام ٢٠١٠، وتمشيا مع هذا الاتجاه تشير التقديرات إلى أنه بحلول عام ٢٠٥٠ ستصبح المناطق الحضرية مأوى لأكثر ثلثي البشر، ويصبح التحدي الرئيسي هو التمدد الحضري العشوائي، وعدم وجود بنية تحتية، ونفاد الموارد، والتدهور البيئي، وخطر الكوارث الطبيعية.* (٩)

يرى مايك ديفيس Mike Davis في كتابه بعنوان : «كوكب العشش Planet of Slums» أن العالم يتجه نحو انفجار بسبب عدم التكافؤ في المناطق الحضرية بسبب تزايد عدد سكان العشش، ويؤكد ديفيس أن الفرص

* (٩) تقرير الأمم المتحدة - جنيف - يونية ٢٠١٣، اللجنة المعنية بتسخير العلم والتكنولوجيا لأغراض التنمية، تسخير العلم والتكنولوجيا لأغراض استدامة المدن والمجتمعات شبة الحضرية - ص ٤

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»
تكاد تكون معدومة أمام الفقراء لأن هؤلاء الفقراء خارج الاقتصاد العالمي،
ويقتاتون على الفئات، وأن قوى الاستغلال تتولى خداعهم عبر امتلاكها لوسائل
الدعاية، وقنوات الإعلام بشعارات مذبوبة عن الانسانية، والحرية .

نظرية المتصل الحضري :

يرجع صياغة مصطلح : «المتصل الحضري» إلى عالم الأنثروبولوجيا
روبرت ردفيلد Robert Redfield، وقد جاء بناء على تصوره أن المجتمعات
تتحول عبر متصل يمثل أحد طرفيه **مجتمع الفولك** (الحشود الكثيفة التي يصعب
إحصائها)، وتمثل كل مرحلة من المتصل درجة من مراحل التطور، ويمثل
الطرف الآخر للمتصل المجتمع الحضري.

تستند فكرة المتصل الحضري من الناحية النظرية على افتراضين
أساسيين :

١ - أن المجتمعات المحلية تتدرج بشكل مستمر من الريفية إلى الحضرية
وفقاً لعدد من الخصائص أهمها ازدياد حجم المجتمع بشرياً، وعمرانياً.

٢ - أن هذا التدرج يصاحبه اختلافات، وفروق في أنماط السلوك.

التفرقة بين المجتمع الريفي، والحضري في البلدان العربية له مبرراته؛ فهو من آثار التخلف؛ فكلما ارتقت المجتمعات، وارتفع مستواها الاقتصادي والاجتماعي، والتكنولوجي قلت الفروق فيها بين المدينة، والريف.* (١٠)

المشروع الحضارى العربى :

بعد حرب أكتوبر دارت مناقشات فى إطار لجنة «التعمير الحضارى» التى شكلها الأستاذ محمد حسنين هيكل فى مؤسسة الأهرام، وكان الهدف منها هو دراسة المشروع الحضارى العربى، ومستقبله بعد الانتصار الذى حققته الأمة العربية نتيجة لتوحيد الجهود العسكرية، والاقتصادية، وكانت اللجنة تضم: محمد حسنين هيكل، ود. محمود فوزى، ود. زكى نجيب محمود، ود. حسين فوزى، ود. لويس عوض، ود. جميل مطر، ود. عبد الوهاب المسيرى، والأستاذين توفيق الحكيم، وأحمد بهاء الدين.

كانت توجهات أغلب أعضاء اللجنة من الصهاينة المصريين (د.محمود

* (١٠) علياء شكري ، وآخرون، الحياة اليومية لفقراء المدينة، دراسة اجتماعية واقعية، جامعة عين شمس - القاهرة ٢٠٠٥ - ص ١٦٩

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

فوزى - د. زكى نجيب محمود - د.حسين فوزى - د. لويس عوض - توفيق الحكيم) محسومة بحكم علاقاتهم الوثيقة بالكيان الصهيونى، وزيارتهم لعصاباته قبل إعلان دولة الكيان الصهيونى فى ١٥ مايو ١٩٤٨، وكان هذا الاتجاه يتبنى رأى أنه لا خلاص للعرب إلا بتبنى الحضارة الغربية، وقيمها، وأن النموذج الغربى للتنمية جدير بالتبنى بأكمله، وأنه لا يوجد نموذج بديل، وأن على العرب أن ينسوا تراثهم، وتاريخهم، وأن يحذو حذو أوربا فى كل شيء؛ فالتحديث فى رأى هؤلاء فى واقع الأمر هو التغريب، أى اتباع أساليب الغرب فى التفكير والسلوك، والتنمية بلوه، ومره !!

.. وطرح توفيق الحكيم النموذج الصهيونى، وعبر عن إعجابه به باعتباره جزءاً من النموذج الغربى، وحكى تجربته عن زيارته للجامعة العبرية فى أثناء حكم الانتداب البريطانى!!

.. وتابع د. حسين فوزى التعبير عن إعجابه بالنموذج الصهيونى، وحكى ذكرياته عن زيارته للجامعة العبرية بصحبة طه حسين سنة ١٩٤٤، وكيف نصحهما د. محمود فوزى سفير مصر فى فلسطين آنذاك بإخفاء خبر تلك الزيارة !!

كانت الأسانيد التى يسوقها الصهاينة المصريون للتطبيع مع دولة الكيان الصهيونى هى نفس الأسانيد التى ساقها أسلافهم من الماسون للانفتاح على





** المسكن المصري بما يحمله من تشوهات وتلوثات بصرية، وضياح الملامح المعمارية التي يمكن أن تؤدي إلى نمط معماري متميز، إضافة إلى ستائر الشرفات القذرة بما تحمله من الأتربة والهباب، ومناشر الغسيل، وأجهزة مكيفات الهواء، والأطباق اللاقطة لإشارات البث الفضائي!!



سكان «العشش» صداع في رأس الحكومات المتعاقبة في مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر!!



سكنى المقابر .. حالة من البلادة الإنسانية، وتحلل البنى الإدراكية لمعنى الموت



سكان السطوح .. تحدي جديد يضاف إلى هموم المعماري المصري !!



«حضور تواصل صادم» لصورة الريف في قلب المدينة !!

بينما طرح د. عبد الوهاب المسيرى، والأستاذ أحمد بهاء الدين ضرورة أن نتحفظ فى استيرادنا للأنماط الحضارية الغربية حتى نحتفظ بهويتنا، وأنه لا يجوز الترويج للنموذج دون فهم أصوله، وأسباب نجاحه المزعوم، ومدى إمكانية استمرار هذا النجاح عبر الزمان؛ فالحضارة الغربية قد قامت على احتلال أرض الغير، وقمعه، ونهب ثرواته، وانتهاج سياسات تؤدى إلى استمرار تخلفه، وتحول دون تحديثه أو لحاقه بركب الديمقراطية، وإسرائيل التى يعتبرها (د. محمود فوزى - د. زكى نجيب محمود - د. حسين فوزى - د. لويس عوض - توفيق الحكيم) نموذجاً للحضارة الغربية يجب أن يحتذى فى شرقنا العربى؛ فدولة الكيان الصهيونى على أرض فلسطين دولة قامت على أرض الآخرين، ولا تستمد شرعيتها من العقل أو أى قيم نبيلة، وإنما من منطق القوة وشرعية الغاب .

واحتدم النقاش حول «المشروع الحضارى العربى» بين دعاة التغريب والصهيينة، ودعاة إعادة النظر فيها، وتعميق الحفائر المعرفية للوصول إلى الأصوب، ورؤية الأمور بشكل نقدى يصدر عن إدراك لأهمية التراث والهوية؛ ولم تتقارب وجهات النظر .

وقرر الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس اللجنة عقد مؤتمر لدراسة مستقبل «المشروع الحضارى العربى».. لكن هذا المؤتمر لم يعقد بسبب خروج هيكل من الأهرام فى ٢ فبراير ١٩٧٤.* (١١)

.. وكان للسلوك العشوائى فى التعامل مع النسق المعماري المشوة من بداياته أثره على مسخ شكل الوحدة السكنية، وعناصرها حيث يحاول الساكن مواجهة احتياجاته المعيشية المتزايدة فى مسكنه عن طريق استخدام بعض الأساليب - مثل ضم الشرفات، إضافة غرفة جديدة، فتح نوافذ، إنشاء عشب للدجاج لتأمين الاحتياجات المنزلية من الغذاء - أدت هذه الأساليب إلى تغيير شكل الواجهات، وضياع الملامح المعمارية التي يمكن أن تؤدي إلى نمط معماري متميز، إضافة إلى ستائر الشرفات القذرة بما تحملة من الأتربة، والهباب، ومناشر الغسيل، وأجهزة مكيفات الهواء، والأطباق اللاقطة لإشارات البث الفضائي.

.. ومع تحول البلاد إلى سياسة الانفتاح الاقتصادي ظهر نظام التمليك في الإسكان لتغطية احتياجات طبقة معينة من السكان، وقد أدى نظام البيع

* (١١) محضر الاجتماع مودع بمكتبة الاطلاع بمؤسسة الأهرام .

بدون تشطيب إلى أن قام كل مالك بتشطيبها بطريقة تناسب إمكانياته المادية، محاولا بذلك إيجاد نمط يميز وحداته؛ فأصبحت كل وحدة في المبنى لها شكلا مختلفا عن الإطار العام للتصميم المعماري للمبنى، وتحول المبنى إلى كرنفال للألوان، واستخدام مواد بناء متنافرة غير متجانسة بالإضافة إلى أنماط غريبة من العمارة مثل المباني سابقة التجهيز، والمباني ذات الواجهات الزجاجية !!.

.. وفي تلك الأحياء القذرة يسبب الزحام حالة من الإجهاد السيكولوجي بما يجعل البشر يشعرون أنهم في «زمن التوتر»، وأن المدينة أصبحت أشبه بـ «التجمعات المرضية»؛ بما تحمله من الإحساس بالإرهاق، والتوتر المتنامي إلى جانب الفوضى، والانحرافات السلوكية، والافتقار إلى الشروط الصحية من حيث النظافة، والتهوية، والمناخ، ودرجة الحرارة، والرطوبة، وتأثيرها في تصعيد السلوك العدواني، حيث يؤدي الازدحام وضيق المكان إلى الإرهاق، والتوتر، والصراع، والرغبة في الهروب من المنزل، والنزاع المستمر بين أفراد الأسرة لنقص الإمكانيات، وتضارب المصالح الذي يبدو في صورة عنف يتحول إلى حالة من «الانحطاط السلوكي» اليومي.* (١٢)

استعرض د. محمد الجوهري بعض الأبعاد الاجتماعية للزحام في الأحياء

* (١٢) مقال إدريس مقبول بعنوان: «المدينة العربية الحديثة.. قراءة سوسيو لسانية في أعراض مرض التمدن»، مجلة عمران، للعلوم الاجتماعية والإنسانية.. مجلة فصلية محكمة يصدرها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد ١٦، المجلد الرابع، ربيع، الدوحة ٢٠١٦ - ص ٤٧

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

السكنية الفقيرة، وأثر الزحام في تشكيل بعض القيم، والممارسات السلوكية الناتجة عن الفقر، والعدو، والحاجة، والضرورة.* (١٣)

من وجهة نظر علم النفس العمراني يعتبر «السكن الاجتماعي» و«السكن الوظيفي» يعدان نموذجان لتدهور العمارة العربية التي باتت مشوهة؛ لأن هذا النوع من «العرض العمراني» أو السكني ليس في النهاية سوى مجموعة من الصناديق الأسمنتية الضيقة الخالية من أي تعبير ثقافي أو لمسة جمالية (عبارة عن مرآة فقط)؛ إنه السكن الفقير ثقافياً ودلالياً، والذي لا يمكن أن يعيش فيه الإنسان حميميته، ولا أن يستوحي، أو يستمد من خلاله أي معنى، وأيضاً لا يمكن أن يتواصل فيه مع غيره بضرب من الخصوصية حيث بات يكشف ما يجري داخله بوضوح ودون عناء؛ إنه شفاف يهدم جدار الخصوصية، ومغشوش إلى درجة «الإقراف»، بالإضافة إلى الغش نجد الجشع، والفساد الإداري والمالي لمؤسسات التهئية المجالية والقارية في كثير من المدن، والذي ليس إلا جزء من فساد سياسي تقوده طبقة الرعاع السياسي الذين يصف واسيني الأعرج صعودهم : (صعود الرعاع الذي يعني صعود القيم الميتة)* (١٤).

.. والغش لا يتوقف عند حدود البناء الذي يفتقر إلى أساسيات التشكيل

* (١٣) د. محمد الجوهري، دراسات انثروبولوجية معاصرة - مرجع سابق .

* (١٤) واسيني الأعرج، مرايا الضرب، ط ١، دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ٢٠١١ - ص

وجمالياته، وإنما يمتد إلى تزوير الملامح الحضارية للمدينة !!؛ فالغش قيمة تتوارى خلف البنية العمرانية في المدينة العربية عموماً، وهو لا يتوقف عند حدود البناء الذي يفنقر إلى أساسيات التشكيل وجمالياته، وإنما يستمر إلى تزوير الملامح الحضارية للمدينة بتغيير (الدوال)* (١٥)، ففي كثير من المدن العربية الحديثة يجري عبر عمليات «التجويث العمراني» بتسويق أحياء شبيهة بالجيتوهات المغلقة، والمستوطنات، ولم يتغير المحتوى (المدلول العمراني) بتغيير التسمية عن مدائن الأثرياء المسيجة بالأسوار، وأبراج الحراسة، والبوابات الالكترونية، والكمبوندات التي تحمل أسماء مبهجة بما يخالف طبيعتها، وتعتمد على مغازلة العواطف، وإثارة نغرات التميز التي تحاول توظيفها في خدمة أطروحات إلحاقية مثل «الدارونية الاجتماعية»، وتكريس ثقافة الطبقيّة Culture of Classism بما تفرضه من اصطفاء غير أخلاقي مثل : مدينة الزهور .. حي الأمل .. مدينة الفردوس .. منتجع الحرية .. مدينة النور .. أرض الأحلام .. مدينتي!!

«ثقافة الفقر» :

منذ أن ألقى الباحث أوسكار لويس الضوء على مصطلح «ثقافة الفقر

* (١٥) «الدوال» هي علاقات أو قواعد تربط بين المتغيرات، وتُص على أنه إذا كان لدينا دالة بين متغيرين، وعلمنا قيمة أحدهما؛ فمن ثم يمكننا إيجاد قيمة المتغير الآخر .. تُستخدم الدوال بشكل كبير في الرياضيات لوصف مواقف مختلفة، لذلك من المهم فهم كيفية عملها.

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

«Culture of Poverty» في الستينيات من القرن الماضي، حيث قام بملاحظة بعض الاسر الفقيرة في المكسيك وبورتوريكو، .. ولم ينقطع اهتمام الباحثين بمفهوم «ثقافة الفقر»، ويقصد بهذا المفهوم : (أن الناس الذين يعيشون في كنف الفقر تنطبع سماتهم، وسلوكهم، وشعورهم بقيمتهم داخل المجتمع، إذ يتعدى الأمر مسألة الحرمان إلى الجريمة، الإدمان وفقدان القدرة على الحراك الاجتماعي...).

هذه السلوكيات وإن كانت تجعل الفقراء يتعايشون مع فقرهم بشكل ما، وإلى حد ما، إلا أنها تعمل مع الزمن على تكريس فقرهم، واستنبات «ثقافة الفقر» لدى الأفراد والأسرة والمجتمع .. هذه الثقافة التي يرى بعض علماء الانثروبولوجيا أنها: «ثقافة فرعية تنتقل من جيل إلى جيل مع مسارات العائلة، موضحين أنها تتجاوز الاختلافات الإقليمية، والقومية قائلين بأن لها أوجه شبه مشتركة بين الدول تتجسد في بنية العائلة، وهي في نظرهم تكيفات عامة لمشاكل عامة».

ويُتصف الأفراد المتشربين للثقافة الفرعية للفقر بمستوى طموحٍ منخفض وبانصياعهم للقدرية، وغياب مشاركتهم في الحياة العامة، وعدم اندماجهم في المؤسسات الأساسية للمجتمع الأكبر، وبارتفاع حالات الطلاق، والاعتماد على المرأة في الاضطلاع بمختلف مهام الأسرة بما فيها الإنفاق، وعدم الإحساس

بالأمان، .. وتنتقل هذه القيم عبر الأجيال، فعندما تطفو هذه الثقافة على سطح المجتمع تؤثر في أطفاله، هؤلاء الذين يتشربون القيم، والسلوكيات الأساسية التي ينقلها لهم «وسطهم الاجتماعي»؛ فينمو إحساسهم بالعجز عن اللحاق بركب المجتمع، ليصبحوا نتيجة لذلك غير مهيين للاستفادة من الفرص، والظروف التي قد تصادفهم عبر مسار حياتهم.

.. ويتسم الأفراد الذين يرزحون تحت «ثقافة الفقر» بمستوى منخفض من التعليم والثقافة، كما قد ينعدم لديهم روح الانتماء؛ فهم لا ينتمون لاتحادات عمل، وليسوا أعضاء في أحزاب سياسية، دائما في حالة توجس وفقدان الثقة في الآخرين، كما أنهم فاقدوا الثقة في حكوماتهم، وينظرون بشيء من الريبة، وسوء الظن للأشخاص الذين يتولون المناصب العليا، ولديهم موقف انتقادي سلبي تجاه بُنى المؤسسات السائدة .

ويرى أوسكار لويس بأن «ثقافة الفقر» هي: تكيف، ورد فعل الفقراء على مكانتهم الهامشية في مجتمع طبقي رأسمالي قائم على الفردية، وإنها تمثل جهدا للكفاح، والتغلب على المشاكل، مع شعور بفقدان الأمل، واليأس الذي يتطور من إدراك عدم احتمال إنجاز النجاح بقيم، وأهداف المجتمع الأكبر.

إلا أن حدة تأثير «ثقافة الفقر» تختلف من مجتمع إلى آخر، فلكل مجتمع سماته

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

التي تميزه من قيم، ومعتقدات، ومُثل تتعلق بالحياة في شتى جوانبها، والحياة السياسية كجزء هام منها خاصة القيم، والرموز الخاصة بالنظام السياسي، وكيف يفترض أن يعمل، وحول ما قد تفعله الحكومة، وحول نظرة الشعب إلى السلطة، والتزاماته إزاءها التي تشكل «الثقافة السياسية»، وهي تختلف من أمة إلى أخرى، وتكون جزءاً من الوعي.

أهم ما في دراسة أوسكار لويس أنه وضع تمييزاً بين الفقير و«ثقافة الفقر»؛ فالفقر ليس مجرد الحرمان الاقتصادي، وغياب المستلزمات المادية، بل هو أسلوب حياة تعيس في محيط الطبقات الدنيا يفقد الكرامة الإنسانية؛ وهو بذلك ثقافة متميزة تتجاوز الحدود الإقليمية الريفية، وهي ثقافة فرعية، ووجودها مكمل للثقافة السائدة .

خلص لويس من دراسته لنتيجة مفادها أمرين هما:

١ - «أن للفقر ثقافة خاصة به لها عناصر مشتركة بين الفقراء أينما وجدوا، وهي ثقافة تخلق نفسها بنفسها، وتنتقل من جيل لآخر عن طريق ما يعرف بالتنشئة الاجتماعية، وأكد لويس: «أن الفقراء هم المسؤولون عن فقرهم والمؤيدين له».

٢ - ثقافة الفقر لا تنتهي بانتهاء الفقر؛ فالفقر حالة تنتهي عند التخلص منه، ولكن ثقافة الفقر طريقة تفكير يصعب التخلص منها، ونجدها متمثلة عند هؤلاء ممن كانوا يعانون حياة معيشية صعبة ثم تخلصوا منها، ولكنهم مازالوا يفكرون في الفقر بنمط سلبي، وهو ما يلخصه المثل الشعبي المصري: «شبعة بعد جوعة» .

تعرضت نتائج دراسات لويس لانتقادات من قبل العديد من الأثرو بولوجيين؛ فقد كان لويس يرى أن الفقر مرتبط بالرأسمالية بينما يرى الكثير من الأثرو بولوجيين أن الفقر يوجد في كل المجتمعات، وتحت أى ظروف، وكان من أبرز منتقديه توماس جلاوين Thomas Gladwin الذي قلل من أهمية دراسات لويس موضحاً أن الفقراء يخضعون لسيطرة، وجبروت الثقافة القومية؛ فما كان معروف في ثقافة العديد من الدول النامية أن ابن الفقير فقير، وابن الغني غني، وابن الطبيب طبيب، وابن السياسي سياسي، وهكذا بمعنى الثقافة السائدة، والمسيطرة تؤدي إلى الشعور بالإحباط، والقضاء على آمالهم، وأحلامهم بالتغيير .. إن الحرمان، وعدم تحقيق الطموحات هي القاسم المشترك بين ثقافات الفقر الفرعية .*(١٦)

* (١٦) جهاد صالح عبد اللطيف سلامة، الأبعاد الاجتماعية السياسية في التطوير الحضري لأحياء الفقراء ، أطروحة لنيل درجة الماجستير في هندسة التخطيط الحضري الإقليمي - جامعة النجاح الوطنية- نابلس ، فلسطين ٢٠١٠ - ص ١٤

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

قدم د. محمد الجوهرى تعريفاً واسعاً لـ «ثقافة الفقر»؛ فعرّفها بأنها طريقة حياة لطبقة أو فئة ما في المجتمع، وهي تتضمن أسلوب تنظيم السلوك الفردي، وأوجه الحياة المختلفة، ومن بينها: العمل، نوعه، طريقته، موصفاته، مستوى الوعي الصحي، مستوى الوعي الاجتماعي، والاقتصادي والسياسي، طريقة التكيف مع الحياة المدنية، وأورد د. الجوهرى بعض سمات الفقراء متمثلة في الافتقار للخصوصية، والشعور باليأس، والميل إلى التشاؤم، والهامشية، وعدم التخطيط للمستقبل، وتكرار البطالة.* (١٧)

«نظرية التهميش» :

جاءت «نظرية الهامشية» لتقلل من «نظرية ثقافة الفقر»، ولتفتح المجال أمام الدراسات التي تبحث عن الأسباب الحقيقية لظاهرة الفقر، والفقر الحضري، وما يرتبط به من مشكلات اجتماعية، وقد تميزت دراسات الهامشية بالجزئية في معالجة الظاهرة، والتي تمحورت حول البؤس، والحرمان اللذين تعيشهما الطبقات الدنيا في المجتمعات؛ بما يباعد بينها وبين السبب الحقيقي للتهميش، وهو السبب الذي كشفه ستانلي أ. هيتزلر Stanly A. Hetzer في كتابه بعنوان: «النمو التكنولوجي والتغيير الاجتماعي» تحت مسمى «جرائم الياقات

* (١٧) علياء شكري، وآخرون، الحياة اليومية لفقراء المدينة، دراسة اجتماعية واقعية، جامعة عين شمس - القاهرة ٢٠٠٥ - ص ٣٥

البياض White Collar»، والذي أكد فيه أن التطور الصناعي يؤدي إلى ظهور مشكلات اجتماعية بسبب تكديس العمال في المناطق الصناعية؛ مما يؤدي إلى نمو الأحياء المتخلفة Slums area .

يُعرف هيتزلر «جرائم الياقات البياض White Collar» بمعنى قلة الضبط الاجتماعي في مناطق التحضر الرث حيث تصبح المصالح هي حاکمة الأمور .

ويرى بعض علماء الأنثروبولوجيا أن الفرد الهامشي يشكل هجيناً ثقافياً؛ لأنه يعيش على هوامش ثقافتين ومجتمعين، لكنه ليس عضواً كاملاً في أحدهما؛ فالهامشية ثقافة فرعية تختلف عن الثقافة المهيمنة، ويرى البعض أن الجماعات الهامشية هي جماعات قبلت قيم الثقافة المهيمنة لكنها عجزت عن وسائل تحقيقها، أو منعت من ذلك بفعل عوامل الاستبعاد الاجتماعي .

«الفقر الحضري» :

الفقر الحضري ظاهرة مميزة لكل المجتمعات الإنسانية متقدمة أو نامية، ومهما بلغ معدل النمو الاقتصادي بها، ومستوى الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية؛ فالفقر الحضري صفة طبيعية لطبيعة التمايز الاجتماعي في

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

المدينة، وهذه الظاهرة ليست حديثة العهد بل قضية ارتبطت بالمدينة الأوربية منذ فجر الثورة الصناعية في منتصف القرن الثامن عشر، والتي تطلبت أيدي عاملة كثيرة، ونتج عن ذلك هجرة الريفيين الفقراء إلى المدن الصناعية، ومع تطور الحياة الحضرية بشكل سريع في دول العالم بدأت الكثير من المدن تعاني من ظاهرة الفقر خاصة مدن البلدان النامية .

يعرف شحاتة صيام الفقر الحضري: بأنه ظاهرة تتشكل وفق ظروف خاصة بكل مجتمع إذ تلعب فيها الأسباب الاقتصادية، والسياسية والاجتماعية دوراً واضحاً في تحديدها كما أن الفقر يكون أكثر بروزاً في المدينة بسبب تطور الأساليب الحضرية، وزيادة اللاتجانس والفردية .*(١٨)

الواقع أن هناك ارتباطاً بين الفقر، والأحياء العشوائية التي تعبر عن تناقضات البناء الاجتماعي الحضري القائم على الاستغلال واللامساواة.

معدلات الفقر والامية في مصر:

تشير إحصائيات الجهاز المركزي للتعبيئة والإحصاء إلى أن نسبة المصريين

* (١٨) شحاتة صيام، التحضر الرث، والتطور الرث، ط ١ ، مصر العربية للنشر والتوزيع - القاهرة ١٩٩٧

الذين يعيشون تحت خط الفقر ٣٢,٥٪ من مجموع السكان (١٠٤ مليون نسمة) لكن تقرير الصندوق الدولي للتنمية الزراعية التابع للأمم المتحدة أشار إلى وجود ٤٨ مليون مصري فقير يعيشون في ١١٧١ منطقة عشوائية متفرقة في أنحاء مصر، كما أشارت تقارير البنك الدولي أن ٦٠٪ من الأسر المصرية تفتقد الأمن للاقتصادي بسبب انخفاض دخل الأسرة، وما يترتب عليه من الأمن الاجتماعي نتيجة ارتفاع نفقات التعليم والدروس الخصوصية، وارتفاع تكلفة العلاج، وغلاء أسعار الدواء، وغلاء أسعار الطعام، والملابس، وسائر أعباء المعيشة المختلفة (الكهرباء - الغاز - مياه الشرب - المواصلات).

.. كما تشير تقارير الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء إلى أن الأمية بين المصريين تبلغ ٢٧,١ مليون مواطن، وهؤلاء مهمشون بسبب عجز وسائل التأثير، والارتقاء الثقافي، والحضاري من النفاذ إليهم، ومد يد العون لهم، والأخذ بأيديهم، والارتقاء بهم، وبسبب انشغالهم بأمر معيشتهم، ولقمة عيشهم عن التعلم الذي يعتبرونه ترفاً لا مبرر له، ولا فائدة منه، ولا جدوى من ورائه في ظل حالة الاستبعاد الاجتماعي، والبطالة التي يعاني منها خريجو الجامعات الذين سدت أمام الغالبية منهم من المنفوقين دراسياً فرص التوظيف بزعم عدم توافر أسباب «اللياقة الاجتماعية»!!

أسباب الفقر في مصر :

يؤكد معظم الأكاديميين والمحليين بصورة كاملة على عوامل مختلفة للفقر في مصر حيث يرى البعض أن ظاهرة الفقر في مصر تحدث في الأساس من خلال موقعها الجغرافي؛ فمعظم الدولة عبارة عن أراضي صحراوية تفتقد لسقوط المطر بدرجة كافية بالإضافة إلى طبيعة تربتها، ومناخها لا يسمحان بوجود الزراعة الانتاجية في حين يرى البعض أن السمات الثقافية للمصريين هي التي يفترض أن تكون معادية لتحقيق التنمية، والازدهار الاقتصادي لكونهم؛ يرون أن المصريين يفتقدون لنفس النمط من أخلاقيات العمل، والسمات الثقافية التي سمحت للآخرين بأن يزدهروا ويتقدموا، وأن المصريين على النقيض من ذلك فقد تبنوا القيم القدرية بفهم خاطئ واثكالية استسلامية لا تتفق مع أسباب الأزهار الاقتصادي؛ بينما يرى فريق ثالث من علماء الاقتصاد وخبراء السياسات أن حكام مصر لا يدركون ما هو متطلب وضروري لجعل بلادهم مزدهرة ومتقدمة، وأنهم اتبعوا سياسات خاطئة في الماضي بينما يرى فريق رابع أن مصر يحكمها قطاع ضيق من الأثرياء الطفيليين (القطط السمان) - النخبة - * (١٩) التي تهتم ببناء مصالحها، ونظموا هيكل المجتمع بطريق تتلائم

* (١٩) يتحفظ المؤلف على إطلاق مسمى النخبة أو الصفوة بوجه عام في كل لغات العالم سواء جاء تحت مُسمى Élite أو الإنتلجنسيا The intelligentsia لما يحتويه من سوءات: «الدارونية الاجتماعية»، كما يتحفظ بشكل خاص على إطلاق المسمى على لصوص المال العام في مصر .. فأذا وردت هذه الكلمة في بعض سياقات هذا الكتاب؛ فقد جاءت من باب الأمانة العلمية في الإشارة إلى بعض المصادر !!

مع مصالحهم الشخصية على حساب الأغلبية الكاسحة من الشعب.* (٢٠)

كان أخطر ما فعله قطاع الأثرياء الطفيليين (القطط السمان) هو مسخ الحياة في مصر وفقاً لنظرية «ثقافة الفقر»، وصناعة الثقافة عموماً كما يراها الفيلسوفان تيودور أدورنو وماكس هوركهايمر في كتابهما بعنوان «جدلية التنوير»: «صناعة ثقافة هي الشكل الأشد إتقانا للشمولية، والأسوء نوعية».* (٢١)

العلاقة بين السلطة

وسكان العشوائيات :

يقول المؤرخ د. خالد زيادة عن السكان الفقراء والأشد فقراً من ساكني المدن في سياق مناقشة آراء عالم الاجتماع الأميركي من أصل إيراني أصف بيات إن المدن تتغير بفعل زحف الفقراء إلى المدينة، ويسمى ذلك «اللا حركات الاجتماعية»، ويؤكد د. زيادة إن هذا الزحف ليس بريئاً، ولا يتم بدون رقابة

* (٢٠) دارن اسيموجلو، جيمس أ. روبنسون، لماذا تفشل الأمم .. اصول السلطة والازدهار والفقير، ترجمة: بدران حامد، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية - القاهرة ٢٠١٤، ص ٢١ - ٢٢

* (٢١) سيرجي قره /مورزا، التلاعب بالوعي، ترجمة: عياد عياد، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية

للكتاب، دمشق ٢٠١٢ - ص ٧٢



«المواطنون الشرفاء» في حراسة الشرطة أمام نقابة الصحفيين لإرهاب الصحفيين المجتمعين في دار نقاباتهم

السلطات؛ فالسلطات البلدية والحكومية على دراية بكل التفاصيل التي تحدث يومياً في المدن، ولا تفوتها مخالفة أو تعدي، ولكنها تغض النظر في نوع من التواطؤ بينها، وبين هؤلاء الفقراء الذين يحتلون الساحات العامة أو يستفيدون من خدمات الكهرباء، والماء، وسائر الخدمات بلا مقابل.

إن هؤلاء الفقراء الذين يخالفون القانون يدركون أن ذلك يتم بمعرفة السلطات، وبالتعاون معها في أغلب الأحيان؛ لذا هم أقل من الفئات الاجتماعية الأخرى حماساً للمشاركة في الحركات الاحتجاجية.* (٢٢)

العلاقة بين السلطة، و«سكان العشوائيات» ليست بريئة؛ فقوامها الفساد المتبادل تحت غطاء من «الحميمية الزائفة» بغطاء من الأقوال الملفوفة بالكذب؛ فالسلطة ترى فيهم «المواطنون الشرفاء»، وتغض الطرف عن تجاوزاتهم في مقابل أنهم يمنحون السلطة قبلة الحياة عندما تنفض الجماهير من حولها، ويديرون لها الظهر، ويكسبون الشرعية لممارستها، ويضفون عليها رونقاً وبهاء عندما يتم استدعاء هؤلاء للاصطفاف أمام لجان الانتخابات لاصطناع صور زائفة عن حجم المشاركة الشعبية في الاقتراع على الاستحقاقات الدستورية، أو يتم حشدهم للرقص واطلاق الزغاريد أمام لجان الانتخابات لاصطناع البهجة،

* (٢٢) خالد زيادة، المدينة العربية والحداثة، رياض الريس للكتاب والنشر - بيروت ٢٠١٩

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»
وإظهار الرضاء عن السياسات وأداء الحكومة، وأو يتم تجييشهم لإرهاب بعض
الفئات المعترضة على بعض ممارسات السلطة .

يرى جور فيدال أن الأسوأ في الحياة عندما يعد التلاعب بالوعي أهم أدوات
الإدارة الرئيسية الموجودة في أيدي مجموعة حاكمة غير كبيرة من مدراء
الشركات، والمدراء الحكوميين، والأشد سوءا في منظومة التلاعب هو إقناع
الناس بالتصويت ضد مصالحهم الخاصة .

القاهرة ٢٠٥٠:

مع دخول مصر إلى الألفية الجديدة، بدأت الحكومة المصرية تبذل جهوداً
لتقديم «رؤية» مستقبلية للمدينة، حملت لافتات براقية يهدف الخداع مثل «التطوير
العمراني» و«الارتقاء بالمدينة» و«النهضة الاجتماعية»، وهو ما أدى إلى
مولد «مشروع القاهرة ٢٠٥٠». وقد نتج مخطط «القاهرة ٢٠٥٠» عن جهد
بذل حوالى سنة ٢٠٠٧ بالتعاون بين «الهيئة العامة للتخطيط العمراني»،
و«برنامج الأمم المتحدة الانمائي»، و«برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات
البشرية»، والبنك الدولي، و«هيئة المعونة الفنية الألمانية» (GTZ)، و«هيئة
التعاون الدولي اليابانية» (JICA)، وكان واجهة المشروع جمال مبارك ابن

رئيس الجمهورية في ذلك الوقت؛ وهو ما ألقى ظلال من الشك، والريبة على المشروع بأكمله، وعن سوء النوايا المضمرة، والتي هي عكس المعلنة تماماً، روجت بعض الأخبار أن الهدف هو الاستيلاء على أحياء الفقراء العشوائية ذات الواجهات على النيل في وسط القاهرة مقابل إخلانهم إلى أماكن تنحصر بين الجبل والصحراء !!

كان مشروع «القاهرة ٢٠٥٠» مثيراً للجدل، حيث اتهم السكان والمراقبون الحضريون تلك الخطة بخدمة مصالح «القطط السمان»، ومحاولة تطهير القاهرة من الفقراء من خلال برامج الإخلاء القسري أو الإخلاء التفاوضي، كما انتقد هؤلاء العملية التي تمت بها رسم تلك الخطة بشكل سري، ومفروض من أعلى إلى أسفل، وفي غياب أي نقاش مع الجمهور، وبدون إتاحة البيانات، والتحليل الذي يمثل أساسها الجمهور، وكان الأمر الجدير بالانتباه هو أن المنظمات الدولية التي شاركت في إعداد هذا التقرير كثيراً ما تعلن عن التزامها بحقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية، والمشاركة الاجتماعية .

الإحلال العمراني الطبقي :

ينسب لروث جلاس Ros Glass عالمة الاجتماع البريطانية الجنسية

.. وصناعة «الإنسان ذو البعد الواحد»

مصطلح «الإحلال العمراني الطبقي Gentrification» التي أطلقتها عام ١٩٦٤، وكانت تعني أن الطبقات المتوسطة تغزو المناطق السكنية للطبقة العاملة، وهي الظاهرة التي أسمتها «الإحلال العمراني الطبقي»، التي حدثت تدريجياً في كثير من مدن العالم منذ أربعينات القرن الماضي وحتى سبعيناته، وما زالت تحدث حتى يومنا هذا في معظم مدن العالم، وقد كتب وحل عدد من الجغرافيين والمختصين بالعلوم الإنسانية مثل ديفيد هارفي، ونييل سميث تلك الظاهرة، وربطوها مباشرة بالسياسات الاقتصادية، وأشكال الرأسمالية الجديدة، وكيف تضمن الاستثمارات الرأسمالية الربح السريع على حساب الطبقات العاملة، والأقل فقراً بالاستيلاء تدريجياً على مساكنهم، وطردهم، وعزلهم، حيث يبحث المستثمرون عن يستطيع أن يتكاف بمصاريف أعلى لزيادة أرباحهم، ويلجأ المستثمرون الى الاستثمار العقاري سواء بالتمليك أو بالإيجار، لأن المكاسب الربحية فيه أعلى وأضمن.

فكرة الإحلال العمراني الطبقي انتشرت في مصر منذ السبعينيات من القرن الماضي لاستغلال الفيلات، والقصور، والمباني القديمة في مناطق الدقي وجاردن سيتي، والحلمية الجديدة، ومصر الجديدة عن طريق طرد «مباشر أو غير مباشر» لسكان تلك المناطق؛ فانتشرت مقولة: «راضيهم بقرشين» لإقناع السكان بالإخلاء بغرض جلب طبقات أعلى لتحل محلهم بسبب قدرتهم الشرائية الأعلى، عملية الإحلال العمراني الطبقي تحدث بأشكال ومناهج مختلفة في

مناطق حول العالم، ولكنها تجتمع في أهدافها الذي يتمثل في مدن خالية من الفقراء .

التحولات الاجتماعية

قبل ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١:

المدينة المصرية تشكلت وفق نموذج غربي؛ فجاءت هياكل دون روح ثقافية، وتحولت إلى سوق تغلب عليها روح العشوائية، وأضحى المجتمع يمثل حشد من الأفراد الذين لا تربط بينهم رابطة بالمعنى السوسولوجي بما يعني أننا بصد «أزمة حضرية» تنذر بنتائج «مجتمعية غير مرغوبة، ولا مطلوبة!!»؛ وهو ما كشفت عنه فورة الأحداث في ٢٥ يناير ٢٠١١، وتسارع دوران عجلتها بما جعل نظام الرئيس مبارك يتهاوي وينهار في بضع ساعات!!

.. كان شباب العشوائيات في مقدمة الجموع؛ فهم الذين تصدوا لعنف الشرطة في سلوك انتقامي مما أصابهم من ممارستها اللا - مؤسسية معهم من قبل، وهم الذين اقتحموا أقسام الشرطة، ومقر الجذب الوطني، وبعض مقرات المحافظات، واضرموا فيها النيران، وهم الذين اقتحموا مقر أمن الدولة في منطقة الفراغة في الإسكندرية يوم ٤ مارس ٢٠١١، وفي القاهرة في لاطوغي ومدينة نصر، ومدينة ٦ أكتوبر يوم ٥ مارس ٢٠١١، ونهب ملفات

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

الجهاز، وتسليمها إلى ضباط الجيش؛ مما مكن من بناء قاعدة معلومات عن شخصيات مدنية، ومؤسسات وهيئات مدنية، وأيضا مكن من إخضاع (أمن الدولة) أخطر جهاز حكم مصر على مدى عقود من الزمن تقترب من القرن، كان لتلك التجربة بعض جوانبها المأساوية؛ فقد تمكن بعض الساسة، والنشطاء، والمشبهين من الحصول على ملفات تجاوزاتهم، وتم عرض بعض الوثائق للبيع على أرصفة القاهرة مما حدا بالجيش ومجلس الوزراء إلى إصدار كل منهما لبيان يحذر فيه من مغبة ذلك وخطورته على الأمن القومي.

.. كان انضمام شباب العشوائيات إلى شباب الثورة بسبب التشابك الاجتماعي بين كونهم بلطجية محترفين يعملون لحساب ضباط الأقسام، وكونهم جزءاً من النسيج الاجتماعي لبعض القطاعات الاجتماعية التي شاركت في الأحداث، وعندما فشلت الثورة في تحقيق أهدافها شأن كل الثورات التي لم تكتمل، ومال ميزان القوة إلى جانب الشرطة انقلب شباب العشوائيات على الثورة، وعملوا إلى جانب الشرطة بمقابل نقدي ٥٠ جنية ووجبة ساخنة !!

دينامية المجال والرمز في العاصمة الجديدة :

نبهت فورة الأحداث في ٢٥ يناير ٢٠١١ إلى أن القاهرة لم تعد تصلح

لتكون عاصمة مصر، فقد نمت القاهرة بالتجزئة عبر تلاحمات متتابعة بالاتفاق مع نظرية الدورة المكانية* (٢٣)، وكان تجمع الحشود في ميدان التحرير سبباً في تعطل القلب الحركي لمدينة القاهرة* (٢٤)، وعطل أداء ١٢ مبنى حكومي سد المتظاهرون منافذ الدخول إليها، وقلل من كفاءة وظائف العاصمة أحزمة العمران الحضري الفقير، والأكثر فقر التي أصابها بالتشرد، وأن العشوائيات السكنية التي أحاطت بالمنطقة المركزية كونت مناطق حمراء مرتفعة الكثافة قابلة للتفجير بما يستلزم التفريغ المرحلي، وإعادة بناء مجتمعات التفريغ بما يتوافق مع ثقافة السكان، ونقل الأنشطة الإدارية من قلب القاهرة إلى عاصمة جديدة .

.. المناطق الساخنة أو الحمراء هي مناطق تزداد وطأة الضغوط المجتمعية، والتهميش فيها، وتكون مجتمعات منغلقة على نفسها، تختران طاقة مكبوتة تولد أنماط سلبية تظهر في حالات فردية تتواتر من وقت لآخر، وتكون قابلة للتفجير في حال تعرضها لضغوط مضافة بحيث لم يعد من الممكن فصل الأزمات المتلاحقة التي عصفت بالوطن العربي، في تونس، ومصر، وسوريا، دون

* (٢٣) ادجار هوفر، النظرية المكانية في اختيار المكان المنسب للنشاط الاقتصادي ، ط ١ ، تعريب عزت عيسى غوراني، دار الأفق الجديدة - بيروت ١٩٧٤

* (٢٤) مقال فتحي محمد مصيلحي، المدينة العربية وتحديات التمدن في مجتمعات متحولة : القاهرة الكبرى مثلاً، مجلة عمران فصلية محكمة يصدرها المركز العربي للأبحاث ودراسات المستقبل، العدد ٢٠، م ٥، - الدوحة - ربيع ٢٠١٧ - ص ٢٧

تفكيك إشكالية الانتقال المتسارع إلى المدينة في العالم العربي، والإشكاليات النفسية، والاجتماعية، والسياسية، والدينية، والمادية التي صاحبت، ولا تزال تصحب عملية الانتقال إلى المدينة.

.. وكان من الطبيعي إنشاء العاصمة الإدارية الجديدة كمدينة صحراوية في شرق القاهرة في منطقة وسط بين إقليمي القاهرة الكبرى، وقناة السويس من وحي العمران النيوليبرالي الخليجي الصحراوي في الجزيرة العربية، والاتجاه إلى تأسيس مركز حكم جديد يعكس كثيراً من الدلالات السوسولوجية، والسياسية، والأمنية؛ لضمان الحماية، وعدم المساس بكيان الدولة، وحتى يصبح تكرر ما حدث في ٢٥ يناير ٢٠١١ درباً من المستحيل يتعذر معه الاضرار بالدولة، والمساس بمصالحها أن يكون مقر وزارة الدفاع مركزاً للحكم، وأن تنقل إليها رئاسة الجمهورية، والوزارات، والسفارات، والمجالس النيابية، والمدارس، والجامعات الأجنبية، ويتم إنشاء مطار دولي فيها إضافة إلى الفنادق الفاخرة (سعة ٤٠ ألف غرفة)، وأن تكون مقراً للأجهزة السيادية جهاز أمن الدولة، والمخابرات العامة، وان تحاط بسيجات تمنع وصول الحشود إليها، وفي الوقت ذاته يتم ربطها بشبكة من الطرق والمحاور تضمن سهولة وصول المترددين عليها، أما عن علاقة الحكم بالعاصمة الحالية فقد دخلت في طور جديد بما استلزم تغيير في طوغرافية القاهرة يتطلب هدم بعض المباني التراثية، وتغيير الملامح المعمارية لحي مصر الجديدة ومدينة نصر، واستلزم تغييراً في المجال

البصري الواسع للقاهرة القديمة منذ بناء الفسطاط بعد الفتح العربي لمصر مروراً بالعسكر والقطائع، وحتى بناء القاهرة التي ارتكزت حول قصر المعز لدين الله الفاطمي، بدلاً عن الارتكاز حول الجامع كما في الفسطاط والقطائع، وما طرأ عليها من تغييرات عمراني في العصر الأيوبي حيث أتخذ الأيوبيون القلعة مركزاً للحكم، وجاء المماليك فحكموا على منوالهم مع استحداث حكم السلاطين، ومن بعدهم جاءت أسرة محمد على التي قضت على حكم المماليك في مذبحه القلعة، واستمر حكمها بآليات عسكرية حتى أعلن الخديوي أسماعيل في خطابه أمام القناصل الأوربية بداية الحكم المدني، والنزول من القلعة إلى قصر عابدين (سنة ١٨٧٢م) ليكون مركزاً للحكم..

المدينة القديمة :

طبيعة المدينة العربية القديمة تملئها عليها ظروف موقعها، وخصائصه سواء كانت جبلية في الجبال أو صحراوية في الصحارى أو ساحلية في السواحل، ويتجلى ذلك في طراز مبانيها وتصاميمها، وفي بنيتها الهيكلية، وقيمتها التي تشكل وعاءها المادي في توافق تام يشكل أهم ملامح صورتها الأصيلة؛ فنواتها المسجد الجامع، والساحة، والميدان، والسوق، والصروح، وقشرتها الخارجية الأبراج الدفاعية، والخنادق، والأسوار، والحصون، ويجمع بين الامتداد الأفقي

.. وصناعة «الإنسان ذو البعد الواحد»

للمدينة، وبروز الانبثاق العمودي للقباب، والمأذن في تناغم معماري، وتألف بصري يميز مشهدها الحضري .

لم تولد المدينة العربية بتصميم سابق، ولا بشكل عفوي فقد جاءت وليدة التشريع الإسلامي المفصل لنواحي الحياة دستوراً مهيناً سارت عليه الحياة في مجتمع المدينة العربية، لكنها ليست ابداعاً عربياً خالصاً بل امتدت في جذورها إلى المدن القديمة (ما قبل الإسلام) بما تحويه من فكر تخطيطي، ومعماري نابع من الإنسان بعد ان قام المعماري العربي بتطويره بتكوينات حضرية، ومعمارية أظهرت تماسك المدينة، ووحدة نسيجها العضوي في الخصائص، والميزات التي جاءت نتيجة تفاعل الإنسان مع بيئته الثقافية والطبيعية هي خلاصة تجارب، وممارسات طويلة لعب فيها الزمان والمكان دوراً أساسياً في بلورتها مما أعطى النسيج الحضري خصوصيته ومميزاته .

.. وتوسعت المدينة العربية طبقاً لزيادة الحاجات، وتغير الأنماط الاجتماعية لكنها لم تفقد قدرتها على التكيف المقترن بالتفاعل الحي مع متطلبات كل عصر، وما تفرضه الضروريات في إطار الخصوصية المطلوبة حتى تبنى بعض المعماريين العرب دعاوى إمكانية التوافق بين النمط الحضري التقليدي، وما اطلق عليه: «الحداثة»، وإمكانية التعايش بين القديم، والحديث في إطار الخصوصية لهذه المدينة.

كانت المدينة القديمة تتخذ من المسجد الجامع المركز النواة التي يتكون حولها العمران، وهو ما يتمشى مع الأفكار الإسلامية؛ فالمسجد لا يشكل دور العبادة فقط، ولكن مركزاً سياسياً اجتماعياً وحضارياً؛ فهو المؤسسة الدينية والثقافية التي تستوعب الفاعليات الدينية والتعليمية والثقافية، وهو المكان الذي تحتكم فيه الفئات المختلفة من المجتمع الحضري مع بعضها، ويرتبط به السوق الذي يمثل المركز التجاري الرئيس للمدينة معبراً عن الجانب الروحي والمادي للمدينة محاطاً بالهيكل العمراني الذي يحتل فيه السكن النسبة الغالبة، ويربط السوق بين مركز المدينة، وأطرافها بخانات تتخللها صناعات يدوية، وحرفية غير ملوثة في حين تعزل الصناعات الملوثة خارج المدينة بما يرمز لسلامة ساكنيها من الأضرار ..

.. وكان أهم ما يميز مظهرها العام تلاحم مفرداتها وتكامل مكوناتها في كيان عضوي موحد؛ فالواحدت السكنية في معظمها متشابهة حجماً .. متناسقة كتلة، وتصميمياً بحيث تبدو في مجملها متسلسلة، ومتجانسة ضمن إطارها الكلي بما جعل الفعاليات العامة الأخرى في المدينة مستجيبة لظروف المناخ سواء في التصميم، والبناء، واختيار مواد البناء، والتفاصيل، والمفردات، وأسوار المدينة، وأبراجها، وحصونها، وخنادقها، وأهم ما يميز النمط الحضري للمدينة بخصائصها، وصفاتها المميزة هو الترجمة الحية للعلاقات، والروابط الاجتماعية التي تسود المجتمع، وتعد الدار السكنية هي الوحدة الأساسية

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»
المكونة لها، وكان ضيق الطرقات، وتعرجها، وتدرج الفضاءات، والمساحات،
والحمامات الشعبية موظفاً معتمرياً مما أكسبها خاصية الدمج، والاتصال بين
وظائفها؛ فالنسيج الحضري وظيفي - مندمج ، ومجاله متعدد الوظائف حيث
يختلط الاجتماعي بالاقتصادي بالديني بالترفيهي .

أهم ما يميز المسكن في المدينة العربية الفناء الداخلى المفتوح مربع أو
مستطيل على غرف الدار وفضائها جميعها، ويعبر عن حالة التقارب، والتلاحم
الاجتماعي لأفراد البيت في تلاقيمهم، وتداولهم، وتسامرهم، ومن جانب آخر
خصوصية في الترابط الاجتماعي يراعي :

١ - التوازن بين خصوصية الأسرة، وتفاعلها مع المجتمع .

٢ - تحقيق حرمة المسكن من خلال تجميع الوحدات السكنية وفق نظام
معين يحقق هذه الحرمة، ومراعاة علاقة المسكن البصرية مع مجاوراته
وارتفاع الأبنية، والشرفات، ورغم انغلاق الواجهات إلا من باب الدار فقط؛
لما يحققه من حرمة العائلة، وتمكين أفرادها من القيام بأعمالهم بكل حرية،
واطمئنان، وتصميم منتدى النساء (الحرملك)، ومنتدى الرجال (السلاملك)،
وكان (التختبوش) مكان السماع الموسيقي، وغناء الجوارى، وقصائد المنشدين
ومسامرة الندماء في الصحن الخلفي للدار المُطل على الحديقة حيث تنقل النسائم

اللطيفة رائحة الزهور مختلطة بنغمات الموسيقى، وكان الحرص على تصميم المشربيات من الخشب المنقوش، والمزخرف، والمبطن بالزجاج الملون والبروزات، والزخارف، والأنطقة، والأقواس، وتصميم منافذ دورة التهوية، وملاقف الهواء، وشخشيخة السقف المرتبطة بتلك الملاقف، وذلك لكي يتحقق معالجة مناخية أفضل بتجديد الهواء بصورة دائمة، ومستمرة داخل المبنى، واتساق دورة الشمس مع طبيعة المبنى بما يضمن تحقيق الشروط الصحية والإنارة، والتهوية.

ولم يكن الاهتمام بالطرقات، والأسواق بعيدا عن اهتمام المعماري العربي بتظليل الشوارع برفع المباني على جانبي الشارع؛ بما يوفر الظل للمارة، وتغطية الأسواق بالكامل التي يوجد بعضها الآن في حلب ودمشق وبغداد وأجزاء منها في القاهرة حيث لازالت توجد بعض البواكي بأعمدتها وأقواسها.

.. أهم ما يميز هذا النمط الحضري هو الاحتوائية Contextuality التي تعني عمرايا اقتراب Proximity الناس، والأشياء بعضهم من بعض .. حيثما يكون الاقتراب شديداً يتحقق الحضور المشترك، وتسود الألفة، والمودة لأن الاقتراب من البشر والأشياء يزيد من المعرفة بها، وتكون معدلات التلاقي اليومية عالية، ويسود فيها التعامل وجهاً لوجه .. هذه الحميمية توفرها الاحتوائية العالية التي تشتغل فيها الحواس والإنسانية والعواطف كافة؛ بما يمنح الحياة



المشربيات تزين واجهة الدار وتساعد في التخفيف من درجة الحرارة وتسهم في ضبط دورة الهواء

مجتمع «الفرجة»
اليومية ديناميكية، وازدهار تتجليان في الوحدة السكنية، والاقتراب هنا لا يعني
الزحام، وما يسببه من أمراض وأخلاق الزحام ..

Decontextuality الاحتوائية Contextuality هنا بعكس الإنكشافية
التي تتباعد فيها العناصر في الحيز الحضري*(٢٥)

لم تكن القرية المصرية بمعزل عن التخطيط العمراني للمدينة مع مراعاة
الحاجات الوظيفية في البناء فوق كوم كبير يرتفع عن مناسيب النيل في ذروة
الفيضان، والتي يشبهه د. جمال حمدان بالطبق المقلوب، وبعد إعداد الكوم
.. يبدأ السكان في تخطيطه إلى مناطق سكنية، ويعتبر مصطلح «الكوم» أو
«التل» أكثر مقاطع المسميات تعبيراً عن مواقع القرى المصرية وتأمينه.

يحتوي تخطيط القرية على ثلاثة عناصر أساسية :

١ - قمة «الكوم»، وفيه مركز القرية، ودار الحكم (دوار العمدة، ودوار شيخ
البلد)، ويتوسطه الجامع، وتحيط به خدمات تجارية، والمضيفة .

* (٢٥) مقال د. كامل الكناني، بعنوان: «تخطيط المدينة العربية الإسلامية .. الخصوصية والحدثة»، مجلة
المخطط والتنمية، مركز التخطيط الحضري والإقليمي للدراسات العليا - جامعة بغداد، دورية محكمة نصف
سنوية، العدد ١٥ - ٢٠٠٦



مأساة القرية المصرية بين التلوث البصري والتلوث البيئي .

٢ - شارع داير الناحية، وهو المدخل الرئيسي للقرية .

٣ - الشوارع الفرعية، وتتكون من شبكتين أحدهما النازلة من مركز الكوم في اتجاهات إشعاعية، والثانية المنفرعة من شارع داير الناحية .

مسكن العائلة هو مكان «ابواء» مكوناتها المادية من البشر، والحيوانات والمحاصيل، ويطلق عليه القرويين الـ « المتوى»، ويطلقون على الشخص الذي لا مسكن له في إطارى التوصيف أو المعايرة: «عديم المتوى».

كانت القرية أسوأ حالاً فيما يتعلق بالتلوث البصري الذي يظهر على شكل تنافر في استخدام الأشكال المعمارية، والألوان، ومواد البناء، وتراكم المخلفات الزراعية في الشوارع، والقمامة، وعلى أسطح البيوت، وعمل إضافات، وتغييرات تشوه من شكل المباني، والبيئة العمرانية، ومن أهم أشكال التلوث البصري في الريفية تدهور البيئة الطبيعية، وتجريف الأرض، والتصحر، واختفاء المعالم المميزة للبيئة الريفية.

بيدي د. محمد الشاهد أسفه لهدم الكثير من التراث المعماري في القاهرة

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

ذلك الإنتاج النابض بالحياة، والذي لم يتم توثيقه بشكل كافٍ، ويتم تقييمه بأقل من قيمته، وغالبًا ما يتم محوه دون التفكير بذلك.

يرى د. الشاهد: «القاهرة مدينة غير مستقرة؛ فهي تغير جلدتها باستمرار، وتحول طابعها الحضري والمعماري بطريقة مجزأة، وبسرعة تفوق وتيرة جهود البحث والتوثيق.» .

.. ومن بين التحديات التي تواجه جهود تجميع التاريخ المعماري الحديث للمدينة التدمير المادي للمباني الحديثة، التي لا يُنظر إليها على أنها تستحق الحفاظ عليها.

يشترط القانون المصري أن يكون عمر المبنى ١٠٠ عام على الأقل ليستحق الحماية، لكن بمجرد تسجيل المبنى كمعلم يتم تقييد استخدامه بشدة، مما دفع بالعديد من أصحاب المباني إلى اعتبار القرن نوعًا من الموعد النهائي لهدم أي مبنى.

يُرجع د. الشاهد خلفيات هذا الأمر إلى نشأة أعمال سرية مربحة متخصصة في إلحاق أضرار غير واضحة بالمباني الجديدة بإعتبارها تراثًا، والتي تعتبر سليمة تراثيًا؛ ولهذا السبب «اختفت معظم المباني الحديثة التي تستحق الحماية

أظهرت الدولة ذاتها القليل من الاهتمام بالهندسة المعمارية الحديثة في المدينة كما هو حال العديد من المطورين؛ ففي العامين الماضيين، ألحقت السلطات أضراراً فادحة بالحي التاريخي لمصر الجديدة حيث دمرت ما يقرب من ١٠٠ فدان من المساحات الخضراء، والأشجار التي تعود إلى قرن من الزمان، واختراق حي المعادي بعمل محور (الجزائر) الذي يبدأ من شماله حتى حي البساتين جنوباً، وإعلان السكان بهدم عمارات من حي المازة مع إعطائهم وحدات بديلة، والتخطيط لعمل محاور تخترق الكتل السكنية في مدينتي ١٥ مايو، و٦ أكتوبر بهدف بناء طرق أوسع للمرور إلى العاصمة الإدارية الجديدة في ضواحي القاهرة الصحراوية.

الحدثة العمياء :

يستخدم د. الشاهد مصطلح «الحدثة العمياء» للدلالة على أن الحدثة لم تُمنح في مصر صفة التراث الوطني، وكأن التاريخ توقف عند عتبة القرن العشرين؛ عندما يتم هدم المباني أو الأحياء، غالباً ما تختفي من التاريخ، لأن وجودها لم يتم توثيقه بشكل صحيح؛ ليست هناك هيئات حكومية أو خاصة

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»
متخصصة تعترف بالمباني الحديثة أو تقوم بوضعها في الأرشيف أو توثقها أو
تحميها.

.. ويضيف د. الشاهد بأن تدريس الهندسة المعمارية في الجامعات المصرية
«يهمش، ويغفل في الغالب تاريخ العمارة الحديثة»؛ فطلاب الهندسة المعمارية
يتخرجون دون أخذ دورة مسح حول تاريخ العمارة الحديثة في مصر، وهي
نقطة مجهولة رئيسية في تدريس العمارة.

اللغة والعمران :

.. «العمران» و«اللغة» صنوان؛ فالعمران الشائنة في مجاله البصري لا
ينتج إلا اللغة المبتذلة المحملة بالألفاظ النابية، ولغة الطنين Buzzword التي
لا معنى لها، والتي أطلق عليها د. حسن ظاظا: «التسمم اللغوي»، وتلك الحالة
تبدأ بتسرب رشح دخيل من لغات أخرى تحتاج إليه اللغة فتقبله، بل تحس مع
تعاطيها له في البداية بمزيد من الانتعاش، والقوة، والنشاط يشجعها على تقبل
جرعات أكبر فأكبر من هذا الدخيل، ولكن قدرتها على هذا كله، واستيعابه في
بنيتها العامة تخونها في النهاية؛ فتسقط من الإعياء تاركة المجال للبقية الباقية



مقابر القاهرة المملوكية بريشة الرسام الفرنسي هنري بيشار



هدم المباني التراثية لمقابر القاهرة المملوكية

من الدخيل تتسرب إليها بدون أي مقاومة حتى تجهز عليها، وتميتها*(٢٥)

«إشكالية المعنى»:

بدأ الباحثون في شتى المجالات العلمية يدركون طرائق ارتباط جوانب التغيير في استعمال اللغة بجوانب تغيير اجتماعية وثقافية أوسع نطاقاً، وبدؤوا يقدرّون أهمية استخدام التحليل اللغوي باعتباره منهجاً لدراسة التغيير الاجتماعي، وشرعوا في بناء مداخل للتحليل اللغوي يمكن من خلالها في فهم دراسات التغيير الاجتماعي، والثقافي من خلال العمل في شتى فروع علم اللغة (المفردات، علم الدلالة، النحو) والتداولية.* (٢٦)، وأضاف إليها تحليل الخطاب ليجمع بين ثلاثية: (الفكر واللغة والمنطق).

.. كانت المشكلة أن اللغة واقعة في انحدارات المعنى؛ فقد نشأ علم النحو ليضبط قوانين اللغة، ويعصمها عن الوقوع في الخطأ، ونشأ علم المنطق ليضبط قوانين الفكر، ويهتم بمعاني الألفاظ لكنه بقي عاجزاً عن تنظيم المعاني في الفكر بما يلائم عالم الواقع، ويرضي الإنسان، وبرزت ما أطلق عليه العلماء: «إشكالية

* (٢٥) د.حسن ظاظا، اللسان والإنسان.. مدخل إلى معرفة اللغة، مكتبة الدراسات اللغوية - عدد ١، دار القلم، دمشق - الدار الشامية، بيروت - ط٢ - ١٩٩٠م - ص ١١٨

* (٢٦) نورمان فيركلف، الخطاب والتغيير لتلاجماعي، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، ط ١ - العدد ٢٥٩٣ - القاهرة ٢٠١٥

المعني» .

كان أول المهتمين بهذا الأمر الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه بعنوان: «دلائل الإعجاز»*(٢٧)؛ فاللفظ عند الجرجاني لا ينفك عن المعنى؛ فقد قال إن المعنى الشريف مثلاً تزداد بالتصوير قيمته، ويرتفع به قدره، بل إن غير الشريف من المعنى بالتصوير قيمة تملو، ومنزلة تملو؛ فالصلة بين اللفظ، والمعنى مكيئة فهما بمنزلة المادة، والصورة، وبمثابة الروح، والجسد .

ورفض الجرجاني أن تكون الفصاحة في اللفظ دون المعنى، ورفض الاعتداد باللفظ وحده، ورفض أن ترجع البلاغة إلى اللفظ وحده؛ لأن دلالة اللفظ غير ثابت، وإنما يتغير بتغير مواقعها في الجملة، الألفاظ عند الجرجاني وسائل التعبير عن المواقف، والكلمات، ورموز للدلالة على الأفكار، ويتوقف نجاح الألفاظ بمدى افصاحها عن المعاني؛ فالكلمة المفردة مجرد إشارة إلى الصورة الباردة للشيء أما الكلمة المستخدمة في سياق فهي شحنة من العواطف الإنسانية، والصورة الذهنية، والمشاعر الحية إلى جانب ما فيها من معنى عقلي مجرد.

إن لدينا صورة ذهنية لكل شيء، ونحن نضع ألفاظ اللغة، ونستعملها لنحرك

* (٢٧) الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز - طبع على نفقة الحاج عبد الرحيم الحلوجي الكتبي بشارع الحلوجي منقول عن نسخة الشيخ محمد محمود الشنقيطي المنسوخة بخط اليد والمحفوظ بالكتب خانة الخديوية نمرة ٥ - القاهرة - بدون تاريخ.

هذه الصورة الذهنية الكامنة .

يتفق أوجدن، وريتشاردز في كتابهما بعنوان: «معنى المعنى .. دراسة في أثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية»*(٢٨) مع الجرجاني فيما أسماه بـ «النظرية الإشارية» التي عنيت بالمعنى، وقد لخصا حاصل هذه النظرية أن : ثمة ثلاثة عناصر تشكل أطراف ما عرف عندهما بـ «المثلث الدالي» هي أن : «الشيء في الطبيعة، وصورته في العقل الإنساني، ورمزه اللساني»*(٢٩) .

وقد اهتم أوجدن، وريتشاردز بما يطرأ على التواصل اللغوي بين بني البشر من احتمالات لغوية تخل بالقطع لما يراد بمعاني الكلام في اثناء التواصل، وما يترتب على ذلك من فساد الفهم، وهو ماطلق عليه مارتن هايدجر : «فساد اللغة».

فساد اللغة

«بيت الوجود»:

يرى مارتن هايدجر أن اللغة الطبيعية صارت في الزمن الحديث

* (٢٨) أوجدن وريتشاردز، معنى المعنى .. دراسة في أثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية، ترجمة : د. كيان أحمد حازم يحيى، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا ٢٠١٥
*(٢٩) أوجدن وريتشاردز، معنى المعنى ..، مرجع سابق - ص ٦

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

تستبدل بها لغة مكونة تكويناً خاصاً، وصارت الكلمات الآن تحمل معاني غير مقصودها، وتم تنظيفها من جملة من المعاني .. يقول هيدجر: «كانت اللغة هي الأقدس من بين القيم كلها»، وحين صار التلاعب بالوعي الوسيلة الأساسية بدلاً من القوة احتاج أصحاب السلطة إلى تحويل الكلمة إلى أداة لا شخصية لها، وخالية من الروح.

ومن وجهة نظر هيدجر كان تحويل اللغة إلى أداة هيمنة مما أطلق البداية لعملية تدمير اللغة، وهو ما حذر منه هيدجر في مؤلفه: «رسالة عن الإنسانية» :

«اللغة بيت الوجود، يسكن الإنسان في مسكن اللغة، .. والاجتياح المطرد للغة المنتشر في كل مكان لا يقوض فقط المسؤولية الجمالية، والأخلاقية في استعمالات اللغة جميعها إنه يتجذر في تدمير الوجود الإنساني»*(٣٠)

كان هيدجر يرى أن اللغة هي «سيدة العلاقات»؛ لأنها محركة العالم، وكاشفة الوجود لأن مهمتها «إنارة الوجود» أي التفكير في وجود الإنسان من خلال الإنارة، وهذه الأخيرة ستمكننا من النظر في ماهية الإنسان*(٣١)

* (٣٠) إبراهيم أحمد، انطولوجيا اللغة عند مارتن هيدجر، ط ١، الدار العربية للعلوم والنشر، منشورات الاختلاف - الجزائر ٢٠٠٨. ص ٨٩
* (٣١) إبراهيم أحمد، انطولوجيا اللغة عند مارتن هيدجر، مرجع سابق - ص ٦٤

الدراسات السيميائية وتحليل اللغات الطبيعية :

كشفت الدراسات السيميائية عن دور متزايد للأنظمة العلامية في تحليل اللغات الطبيعية، ومظاهر الحياة الاجتماعية، والطبيعية، وكافة العلوم، والأداب، والفنون بطريقة تبعث على الدهشة إذ لم يكن يخطر على البال أن يتسع مجال تطبيق العلامات بمختلف أنواعها ليشمل ميادين لا حصر لها حتى ليتمكن القول أن العلامة قد تضخمت، واجتاحت كافة الحقول، وهي الآن تتحول تدريجياً إلى (متعال) جديد ينافس الكثير من العلوم، والفلسفة في الادعاء بإمكانية تقديم تحليل شمولي لكافة مظاهر الحياة، والكون، والسلوك.* (٣٢)

الأنموذج اللغوي بالذات هو الذي راح يهيمن على مختلف الحقول المعرفية، والحياتية بوصفه الأنموذج الأكمل القادر على تفسير الظواهر غير اللغوية أيضاً .

* (٣٢) فاضل ثامر، اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمسطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، ط ١، المركز الثقافي العربي - بيروت ١٩٩٤ - ص ٧

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

قام العلماء بفحص العلاقة بين اللغة والنسق العلامي عبر أكثر من مستوى ووفق أكثر من منهجية؛ وقد اتاحت الدراسات السيميائية Semiotics أو Semiology الفرصة لتقديم تصورات جديدة في هذا الميدان إذ تحيلنا السيميائية إلى دراسة العلامة Sign أساساً باعتبار أن اللغة، وكذلك كافة الأعمال الأدبية والفنية، وحتى الممارسات والطقوس الاجتماعية هي نسق علامي معين.* (٣٣)

.. يعد المنهج السيميولوجي من أهم المناهج النقدية المعاصرة التي وصفت لمقاربة جميع الخطابات النصية، ورصد كل الأنشطة البشرية بالتفكيك والتركيب، والتحليل، والتأويل بغية البحث عن آليات إنتاج المعنى، وكيفية إفراز الدلالة عبر مسألة أشكال المضامين بسبر أغوار البنيات العميقة دلالة، ومنطقاً من أجل فهم تعدد البنى النصية، وتفسيرها على مستوى البنية السطحية تركيباً، وخطاباً، ومن ثم يهدف المنهج السيميولوجي إلى استكشاف البنيات الدلالية التي تتضمنها الخطابات، والأنشطة البشرية: بنية، ودلالة، ومقصدية، والبحث عن الأنظمة التواصلية تعقيداً، وتجريداً، ووظيفة، كما تعتمد السيميولوجيا إلى وضع قواعد مجردة كونية للخطابات الأدبية سطحا، وعمقاً لفهم الإبداعات الفردية في كل تمظهراتها السطحية على المستويات الصرفية، والتركيبية، والدلالية والمنطقية، والبحث عن المولدات الحقيقية لهذا التعدد النصي، والخطابي على مستوى السطح .

* (٣٣) فاضل ثامر، اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، مرجع سابق - ص ١٥

.. لا يمكن مقارنة أى نص أو خطاب أو نشاط إنساني، وبشري مقارنة علمية موضوعية إلا بتمثل المقاربة السيميوطيقية التي تتعامل مع الظواهر المعطاة باعتبارها علامات، وإشارات، ورموز، وأيقونات، واستعارات، ومخططات، ومن ثم لابد من دراسة الإنتاجيات الإبداعية، والأنشطة الإنسانية تحليلاً، وتأويلاً من خلال ثلاثة مستويات منهجية سيميوطيقية، ويمكن حصرها في البنية، والدلالة، والوظيفة.* (٣٤)

* (٣٤) جميل حمداوي، السميولوجيا بين النظرية والتطبيق، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني - المغرب ٢٠٢٠ - ص ٦

الفصل الثاني:

مجتمع «الفُرجة» .. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

.. رغم مرور أكثر من عشر سنوات على التجربة المريرة لم يحاول أحد إماطة اللثام عن التحولات الاجتماعية في حياة المصريين قبل أو بعد ٢٥ يناير ٢٠١١؛ فالمشتغلون بالفكر في مصر غالباً ما يكونون من المشتغلين بعمل أدبي أكاديمي، ويكتبون المقالات في الصحف السيارة التي تمتلكها الدولة أو جهات نافذة في الدولة، وعادة ما يكونون من أصحاب الجلود المصقولة اللامعة، والياقات البيضاء، .. الذين يفضلون الجلوس بنظارتهم الطبية في مكاتبهم المكيفة خلف واجهات زجاجية لا تنفذ إليها الشمس .. يتلقون التعليمات في استرخاء راضين بالمكانة الحكومية، والمرتب الضخم، ونهر المكاسب، والحوافز الضخمة من العطايا، والجوائز، ومكافآت اللجان، والاجتماعات، والمؤتمرات، ودعوات المحافل، ومهرجانات التكريم مؤثرين السلامة، ومكتفين بدعم النظام القائم بمقولات مقولبة، وأفكار معلبة تجاوزها الواقع، وتخطاها الزمن؛ ودون أدنى محاولة للاشتباك مع الواقع المعيش، أو فض رموزه، وفهم رسائله!!.

.. بمعنى أننا لم نفهم ما يجري تحت السطح!!، لكننا سنحاول !!

.. يذكر د. ريتشارد أنطون في كتابه : «الدراسات الأنثروبولوجية

.. وصناعة «الإنسان ذو البعد الواحد»

في الشرق الأوسط» الصادر في نيويورك سنة ١٩٧٣ عدة حقائق هامة عن دراسات الأنثروبولوجية في مصر أهمها :

١ - انطلقت الدراسات الأنثروبولوجية على المستوى الأكاديمي في مصر في عقد السبعينيات من القرن الماضي - وهو تاريخ متأخر نسبياً - ويسجل د. ريتشارد أنطون ملاحظة جديرة بالاهتمام حيث يلاحظ تميز الدراسات المصرية منذ بدايتها الأولى بإجراء الدراسات الميدانية على نطاق واسع، وبشكل مركز، ويلاحظ أن رؤوس الموضوعات، والفروض التي انطلقت تلك الدراسات للتحقق منها مشتقة من كتابات العلماء الفرنسيين (وليست مصرية) .

٢ - ويلاحظ د. ريتشارد أنطون أن الدراسات الأنثروبولوجية في السبعينيات كانت تركز على دراسة مشكلات مصر الاجتماعية والاقتصادية (من منطلقات واطروحات فرنسية، وليست مصرية) وخاصة مشكلة النمو السكاني السريع والأسرة وتنظيمها، والتحضر، والتصنيع، وتوطين الفلاحين في الأراضي المستصلحة، ومشكلة العمالة المصرية المهاجرة بمستوياتها المختلفة، كان ذلك يمثل حالة من «الانسحاق الحضاري»؛ فالآخر هو الذي يحدد لنا رؤوس الموضوعات المبحوثة، ويحدد لنا الأسئلة غن أنفسنا، وي طرح علينا الفرضيات، ويضيق علينا في الاختيارات؛ ليصل بنا إلى حيث يريد أن يضعنا.

٣ - ارتباط أولويات البحوث الاجتماعية، والأنثروبولوجية بأولويات الحكومات القائمة على أساس أن المؤسسات الحكومية هي جهة التمويل الوحيدة القادرة على دعم البحوث الاجتماعية؛ فجميع الدراسات في مصر تعتمد على التمويل الحكومي، وهو ما يفرض على تلك الدراسات الخضوع التام لأولويات المؤسسات الحكومية، واحتياجات المجتمع التخطيطية والتنموية، وهذا ليس عيباً ولا عار على الباحث، لأن خضوعه لتلك الأولويات هو توظيف كامل لعلمه في خدمة عمليات التغيير الموجه لخدمة حركة المجتمع، ولخدمة القطاعات الأكبر من أبناء مجتمعة، لكن كان العيب في هذه الدراسات هو القفز من رؤوس الموضوعات إلى الفرضيات، وانتهاء بالنتائج دون إشارة إلى المناهج المستخدمة والوسائل المتبعة .

.. وكانت دراسات الأنثروبولوجية التطبيقية تهدف إلى التحكم بشكل وثيق في بعض عوامل التغيير كما تسمح بإجراء اختبار معملي لبعض الفروض والنظريات؛ وكان التطبيق العملي لعلوم الأنثروبولوجيا يفيد الممارسة اليومية تماماً كما يفيد الأنثروبولوجيا نفسها كعلم فالأنثروبولوجيا التطبيقية تنطوي على توجيه سلوك البشر من أجل تحقيق غايات معينة .

صعوبات البحث :

أولاً : أن كافة الدراسات التي تناولت التأريخ لعلم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا، ورصد الظواهر الاجتماعية، والثقافية، والتغيرات الاجتماعية، والثقافية والسياسية، والاقتصادية، ومدى سرعتها، وتوجهاتها في مصر تواجه حقيقة موجعة، وخطيرة تضعنا أمام معضلة، وهي عدم نشر الرسائل الجامعية المجازة من الجامعات المصرية أو المراكز البحثية في مصر (أقسام الاجتماع بكليات الآداب بالجامعات المصرية، والمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ومركز دراسات المستقبل بجامعة القاهرة، وقسم الأنثروبولوجيا بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية، وقسم الاجتماع بكلية البنات جامعة عين شمس، ومركز البحوث الاجتماعية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ومركز البحث الأمريكي بمصر)، أو نشر مناقشات أو عروض لها تعرّف المهتمين بها من الباحثين، والقائمين على رسم السياسة الاجتماعية بما جاء فيها، كما أنه يحرم الباحث الجيد من الدعم، والمؤازرة المجتمعية بما يدفعه إلى مستويات أعلى من الإنجاز، ومتابعة النتائج العلمية لبحث ما، وتطويرها، وتأكيدا أو تعديلها في بحوث أخرى ثم إمكانية الاستفادة العلمية بنتائج تلك البحوث!!

ثانياً : المنزلاقات البيروقراطية للبحث العلمي، وعدم اعتبار أي شيء علمياً إلا ما صدر عن جامعات، ومراكز متخصصة بالأبحاث، وتقنياتها .. بمعنى احتكار المعرفة العلمية، فهل تحتكر الجامعات العلم !!؟ وهل يحتكر الأكاديميون المعرفة العلمية؟! وهل يحتكر العلم مراكز، ومؤسسات، وأفراد يتمتعون بتقنيات ومناهج، ولا يرون علمية أحد إلا من تقيده حصراً بهذه التقنيات والمهجيات!؟

وقد انتجت تلك المنزلاقات البيروقراطية حالة من «طغيان الرأي» في العلوم الإنسانية خصوصاً بمختلف تفرعاتها، وخلفت جيل مستهلك للمعرفة، وأفواج جامعية تهتمها مكانتها المؤسسية أكثر مما يهمها البحث في العلم والمعرفة خصوصاً في مجتمعات متخلفة، ومستهلكة، واجترارية للمعرفة؛ فتستخف هذه الفئة الجامعية ببعض الإنتاج الفكري، وتصفه بأنه أصناف دنيا من المعرفة على الرغم من عدم قدرتها على تقديم فكراً مجدداً؛ ففي كثير من الحالات يكون البحث العلمي الذي يصدر عن مؤسسة جامعية، او بحثية مجرد تكرار، واجترار لما هو معروف من دون فكر متميز، ولا تجديد، ولا هدف، ولا يتعدى البحث العلمي مجرد اجترار لما هو معروف من دون فكر متميز، ولا تجديد، ولا هدف بل لا يتعدى «البحث العلمي» بغية نيل درجة من الارتقاء الجامعي، أو تنفيذ عقود بحثية ممولة، أو إحراز وجاهة «علموية» .

ليست العلمية في تقنية محددة، ومحدودة، وحصرية، ولا في أسلوب دون غيره، ولا في نمط سائد دون غيره، بل هي في المنطق، والقواعد المستخرجة من الاختبار، وما يثير الفناعة والفاعلية، ويوصل إلى الهدف المحدد لمن يشخص ويحلل ويدرس ويعالج وصولاً إلى نتيجة بأقل تكلفة وأكثر استنتاجية.

ثالثاً : أن الدراسات المتعلقة بمصر، والمكتوبة بلغات أخرى في الجامعات الأوروبية، والأمريكية غير متاحة، وغير منشورة، وخاصة أن جهد المركز القومي للترجمة لا يتجاوز سنوياً عدد أصابع اليدين، وهو رقم لا قيمة له في حركة الترجمة في العالم !!

رابعاً : كان الباحثون المصريون في مجال الأنثروبولوجيا ينتمون إلى مدارس مختلفة يصعب إذابة الفوارق بينها كما أنه لم يوجد العالم المصري القطب الذي يستطيع أن يستوعب تفردات تلك المدارس، وأن يسخر أطروحاتها لخدمة المجتمع؛ فقد حصل الدكتور أحمد الخشاب على الدكتوراة من جامعة لندن في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي (١٩٥٣)، فأدخل التقاليد البريطانية في الأنثروبولوجيا إلى جامعة القاهرة، وما لبث أن عاد في منتصف الستينيات د. عاطف وصفي بعد أن درس الأنثروبولوجيا في أمريكا؛ فدخلت معه تقاليد الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية إلى جامعة القاهرة، ثم عاد د. محمد الجوهري في السبعينيات بعد أن درس الأنثروبولوجيا في جامعة بون بألمانيا التي تعد من

أهم معاهد دراسة الفلكلور في العالم فدخلت معه تقاليد الأنثروبولوجيا الألمانية.. كانت المدرسة الألمانية تقوم بالأساس على «دراسة الفلكلور» من خلال إلقاء الضوء على ما في صدور الناس من معتقدات، وما يدور في عقولهم من تصورات، ورؤى للعالم، وكذلك ما يمارسونه من عادات اجتماعية موضوعها «المأثور الشعبي»؛ بما يعين على فهم العقلية الشعبية، وعلى الاقتراب من الخريطة الاجتماعية !!

كان المصري الوحيد الذي جمع بين الأنثروبولوجيا من منظورها الإنجليزي والفرنسي هو الدكتور أحمد أبوزيد مؤسس ما يطلق عليه تجاوزاً: «مدرسة الإسكندرية» حيث بدأ هو وزملائه على عيسى وعاطف غيث، لكن ما كان يعاب عليهم هو : أن الفروض التي انطلقت تلك الدراسات للتحقق منها مشتقة من كتابات العلماء الفرنسيين (وليست مصرية).

.. كان تقاعس الباحثون عن رؤية واقعهم الاجتماعي رؤية نقدية، ومن ثم وضع أيديهم على المشكلات، والموضوعات الحقيقية الأجدر بالدراسة، فعلم الاجتماع في كل الدنيا هو أكثر العلوم الإنسانية انتقاداً لنفسه، ووعياً بنواحي قصوره وسلبياته، ويكفي أن نقرأ انتقادات علماء الاجتماع الذين يتحدثون عن عدم انضباط القوانين أو التعميمات السوسولوجية؛ فهذه المبالغة في النقد الذاتي المعروفة عند المشتغلين بعلم الاجتماع تمثل مظهراً من مظاهر الصحة.

وزاد الأمر سوءاً ذلك الاضطراب في أداء العلوم الاجتماعية لدورها الذي يرجع في الأساس إلى تدخل مقبوت أو فهم مغلوطن من جانب السلطة لطبيعة الواقع الاجتماعي الذي تحكمه، أو لإمكانات البحث العلمي الاجتماعي، وقدرة أصحابه على الإسهام في صياغة السياسات الاجتماعية، وترشيدها .

.. والحقيقة أنه لا يمكن الحديث في العلوم الاجتماعية، والإنسانية عن موضوعية أوحيدة؛ إذ أن كل باحث يرى الحقائق من منظوره هو، ومن واقع تجربته الشخصية، ومن خلال خبراته الذاتية، ورؤيته الكلية، والنماذج المنبثقة عنها، وقد نفى الأستاذ محمود شاكر في سياق حديثه عن «المنهج» بشكل حازم إمكانية أن يكون المنهج محايداً؛ لذلك طرح فكرة: «ما قبل المنهج»، وما قبل المنهج ينبه إلى تلك الأبعاد المتصلة بالذات الإنسانية، وباللغة، والمعتقد والرؤية الكلية للكون، وهذه الأبعاد تشكل رؤية الباحث، وتحدد زاويته في النظر، والتحليل، والتفكير، وتؤثر بدرجة أو بأخرى على نتيجة تحليله، وطريقة فهمه وتفسيره*(١).

.. وهو ما أكده كارل بوبر بقوله : «إذا افترضنا أن العالم الاجتماعي يسعى حقاً في طلب الحقيقة، فإن المذهب التاريخي ينبهنا إلى الصعوبات

* (١) د. عبد الوهاب المسيري وآخرون، إشكالية التحيز.. رؤية معرفية ودعوة للاجتهد، ط ٢، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٩٦

المرتتبة على هذا الفرض المتعلقة بالميل، والمصالح مثل التأثير في مضمون النظريات، والتبريرات العلمية؛ فلا مفر من الشك في إمكانية السيطرة على التحيز وتجنبه.

كما ينبغي أن نتوقع تعدد وجهات النظر بقدر ما يوجد من مصالح، ودائماً تكون الكلمة الفاصلة لـ «النجاح السياسي» وحده.* (٢).

.. كان الارتباك واضحاً بين الباحثين المصريين، وبين علماء الاجتماع الدوليين؛ فقد أعلن كارل بوبر عن : عقم «المذهب التاريخي» في مناهج العلوم الاجتماعية* (٣)

المقصود بـ «المذهب التاريخي **Historicism**» طريقة في معالجة العلوم الاجتماعية تفترض أن التنبؤ التاريخي هو غايتها الرئيسية كما تفترض الوصول إلى هذه الغاية بالكشف عن «القوانين» أو «الاتجاهات» أو «الأنماط» أو «الايقاعات» التي يسير التطور التاريخي وفقاً لها .

* (٢) كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي، دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية ، ترجمة عبد الحميد صبره، منشأة المعارف بالإسكندرية - الإسكندرية ١٩٥٩ - ص ٢٦
* (٣) كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي، دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية ، مرجع سابق

وبرهن كارل بوبر على كذب «المذهب التاريخي» بعدة أسباب أهمها :

١ - يتأثر التاريخ الإنساني في سيره تأثيراً قوياً بنمو المعرفة الإنسانية .

٢- لا يمكن لنا بالطريقة العقلية أو العلمية أن نتنبأ بطريقة نمو معارفنا العلمية.

٣ - إذن فلا يمكننا التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنساني ..

٤ - وهذا معناه أننا يجب أن نرفض إمكان قيام تاريخ نظري؛ أي إمكانية قيام علم تاريخ اجتماعي يقابل علم الطبيعة النظري، ولا يمكن أن تقوم نظرية علمية في التطور التاريخي تصلح أن تكون أساساً للتنبؤ التاريخي.

٥ - إذن فقد أخطأ المذهب التاريخي في تصوره للغاية الأساسية التي يتوسل إليها بمناهجه .*(٤)

ولم يلبث في بداية السبعينيات من القرن الماضي أن تحدث عالم الاجتماع الأمريكي الفن جولدنر عنما سماه: «الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي» في ظل المناخ السيئ الذي يعمل فيه المنظرون الاجتماعيون في إطار بيئة اجتماعية

*(٤) كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي، دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية ، مرجع سابق - ص ٥ .

منهارة سواء تلك البيئة الحضرية المصابة بالشلل، أو في حرم الجامعات التي ضربت بقوة.* (٥)

بدأت الأزمة التي تحدث عنها الفن جولدر في السبعينيات من القرن الماضي، وتتابع حلقاتها خلال العقود الأربعة المتتالية حتى انتهت آخر حلقاتها مع غروب القرن التي بدأت فيه، وتركت علم الاجتماع مع بداية القرن ٢١ في حاجة إلى تأمل جديد، ولكن من نوع آخر، وإذا كان القرن السابق قد قدم تأملاً لطبيعة الأزمات التي فرض على علم الاجتماع أن يواجهها فإن التأمل الذي نحتاجه في القرن الجديد ينبغي أن يهتم بالبحث عن سبل الخروج من الأزمة أو الأزمات التي مر بها التنظير الاجتماعي؛ وذلك لتقديم حلول تساعد على استمرار خصوبة، وفعالية هذا التنظير، وكفاءته، وقدرته على فهم واقعه الجديد.

يرى الفن جولدر أن الأزمة الأولى التي واجهت التنظير الاجتماعي انقسامه على ذاته مع نهاية الحرب العالمية الثانية إلى علمين : علم اجتماع يوجهه التنظير الماركسي في مقابل علم اجتماع آخر يوجهه التنظير المحافظ أو الليبرالي، وبذلك كان علم الاجتماع المنقسم على ذاته أكثر ارتباطاً

* (٥) الفن جولدر، الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي، ترجمة على ليلة، المشروع القومي للترجمة، المجلس القومي للترجمة - العدد ٦٦٧ - القاهرة ٢٠٠٤

بالأيديولوجية؛ حيث شكلت الأيديولوجية الطاقة التي تفجر إبداعاته، وفي فترة الحرب الباردة التي امتدت من منتصف الاربعينيات، وحتى التسعينيات كان علم الاجتماع في كل من الكتلة الاشتراكية، والرأسمالية يؤدي دوره في الحفاظ على واقعه الاجتماعي، والدفاع عنه، وتبرير التفاعلات التي تقع في إطاره، وابرار نقائص، وأخطاء الواقع الآخر، وعلى هذا النحو أدى الصراع بين واقع الكتلتين : الاشتراكية، والرأسمالية، إلى اهتزاز الثقة في علم الاجتماع؛ .. لأن التنظير الاجتماعي شكل خط الدفاع الأول في هذا الصراع، ومع سقوط الاتحاد السوفيتي سقطت الأيديولوجية، وبدأ علم الاجتماع بلا أيديولوجية توجهه وتستنفذ طاقاته، وإبداعاته، وتراجع علم الاجتماع عن كونه علماً يمارس دوراً نقدياً بالنظر إلى مرجعية أيديولوجية محددة، ويسعى إلى ترشيد حركة المجتمع استناداً إلى توجهاتها .

- ويتمثل البعد الثاني للأزمة في المنهجية التي نقلها علم الاجتماع عن العلوم الطبيعية في الفترة التي عاصرت نشأته، وأنه مهد بمنطلقاته العلمانية، وتوجهاته السياسية الطريق لقيام الثورة الفرنسية .. تلك المنطلقات التي أفقدت العلوم الإنسانية - بصفة عامة - إنسانيتها؛ فعالم الاجتماع ليس ساعاتي، أو مبرمج حواسب رقمية، أو ميكانيكي سيارات .

.. بما يجعلني أؤكد أنني لم أضع يدي على معرفة حقيقية يمكن البناء عليها من دراسات سابقة !!، لكن مقولة الفيلسوف إيمانويل كانط : «لتكن لك الشجاعة بأن تستعمل فكري أنت» أيقظت في نفسي روح التحدي، وجددت إيماني العميق بأن الكتابة عمل انقلايبي ضد ما هو معلب ومقوبل، ويعد من «المسلمات» دون تمحيص أو إعمال للعقل، وكان ذلك بداية فكرة أن يكون هذا الكتاب نواة لعلم الدراسات الأنثروبولوجية الخاصة بـ «العادات الأخلاقية»؛ لأن العادات الأخلاقية تكون دائما أكثر شمولاً، وعمقاً، وتفتح أوسع السبل أمام الباحث لفهم الطبيعة الإنسانية !!

.. وكان للفكرة وجاهتها رغم ما يحوطها من مخاطر المغامرة لأنني لم أجد ما يعينني على فهم «الشخصية المصرية»، ولم استطع حتى تلك اللحظة أن أفهم «كود Code»، أو أكتشف «وسم Brand»، أو أفك «شيفرة Cipher» التي تحكم أساليب تفكير المصريين، وتتحكم في طبيعة سلوكهم؛ لكوني لم أستطع وضع اليد على الدواعي العملية أو التأسيسات النظرية المرغوب فيها، والمُخطط لها سلفاً للتربية والتنشئة الاجتماعية في مصر أو «الهندسة الاجتماعية» التي تحكم بناء الإنسان أو «صناعة الإنسان»؛ فالإنسانية الاجتماعية، والمواطنة السياسية صناعة اجتماعية يتفاوت فيها النصيب الإنساني، ونصيب الطبيعة

الإنسانية، ونصيب غرائز الإنسان، وأهمها غريزة حب البقاء!!

وقد جرى التأسيس لها بفرضية مفادها :

«أن المجتمعات الإنسانية كلها، مارست صناعة الطبيعة، والخصائص الاجتماعية، والسياسية لمادتها البشرية فردياً وجماعياً تحت مُسمى : «التربية ثم التنشئة الاجتماعية» من قبل، وستمارسها اليوم وغداً تحت مُسمى : «الهندسة الاجتماعية» .. إن ظروف نشأة، وتطور الأنظمة السياسية الغربية الحديثة جعلتها السبابة لإدراك أهمية هذه الصناعة، وضرورة توليها لمسئوليتها، ووفرت لها الامكانيات اللازمة لاستخدامها لتضمن لها الشرعية اللازمة لحكم مجتمعاتها، والتحكم فيها، والسيطرة عليها بأقل قدر من الحاجة لاستخدام وسائل القسر، والإرغام المادي»*(٦).

كان من أول الكتب المتخصصة التي صدرت في سنة ١٩٦٤ في مجال التلاعب بالوعي هو كتاب عالم الاجتماع الألماني جيربيرت فرانكة بعنوان: «الإنسان المتلاعب به»، والذي عرّف عملية التلاعب بأنها تأثير نفسي ينفذ سراً يضر بأولئك الأشخاص الذين يوجه إليهم .. وأبسط مثال على ذلك هو

* (٦) د. على عباس مراد، الهندسة الاجتماعية .. صناعة الإنسان والمواطن، ط ١، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية- الجزائر، بيروت ٢٠١٧

ففى كتابه « سيكولوجية التلاعب » يقول ي . ل . . دوتسينكو :

« يمكننا أن نتذكر عددا غير قليل من أحداث الحياة التى غدا فيها التلاعب خيراً؛ ما دام يرفع مستوى التعامل من غلبة العنف إلى غلبة التلاعب - أى معاملة أكثر إنسانية - بالمعنى المعروف».

. . بينما يرى البعض أن التلاعب أسوأ من السوط لأنها تفقد ضحية التلاعب القدرة على الاختيار العقلانى كليا، لأن رغباته مبرمجة من الخارج، ويستعوض عن السوط بأداة أشد فاعلية إنها «صناعة التلاعب بالوعي» التى تشيء الإنسان أى تحوله إلى مجرد شيء .

.. ويرى سيرجي قرة أنه : دائما ما تبدأ عملية تضليل الإنسان بـ «التلاعب» بعقله بخطوات بطيئة، وتدرجية عبر عمليات الاعتياد دون صدمة ولا ألم، ويتدرج هذا الاعتياد؛ ليولد حالة من الاعتياد الخالي من أي أمل في الخلاص أو محاولة تحرر خلاقية .. فالضفدعة الملاقاة في الماء المغلي تقفز .. وإن كانت مجروحة تحت إحساس الشعور بالصدمة أو الألم؛ بينما الضفدعة الملاقاة في

الماء الدافئ؛ فتسبح في القدر مستمتعة بخدر الدفء وهي غافلة عن ملاحظة أن القدر فوق النار، وأن حرارة الماء ستشد .. وتظل مستمتعة هكذا إلى أن تسلق!!

وهو ما عبر عن جوزيف ناي في أطروحته بعنوان «القوة الناعمة Soft Power» بقوله :

« إننا لا نكتفي بتحطيم أعدائنا فقط،.. بل نجعلهم يفعلون بأنفسهم ما نريد بما يخدم مصالحنا».

وقد اقتبس جوزيف ناي مصطلح (القوة الناعمة Soft Power) من ثنائية الصلب، والناعم في مكونات الحواسب، فأجهزة الكمبيوتر تتألف من روافد الشق المادي الصلبة (تكنولوجيا عتاد الحاسوب Hardware)، وروافد الشق الذهني الناعمة (نظم برامج المعلومات Software)، وقد أخذت تلك المسميات في الانتشار مع بداية التسعينيات من القرن الماضي على أثر انتشار الكمبيوتر والإنترنت.

عرّف ناي القوة الناعمة بأنها :

« القدرة على الحصول على ما تريد عن طريق الجاذبية بدلاً عن الإرغام،

وهي القدرة على التأثير في سلوك الآخرين للحصول على النتائج، وتحقيق الأهداف بدون الاضطرار إلى الاستعمال المفرط للعوامل، والوسائل العسكرية والصلابة؛ لأن القوة لا تصلح إلا في السياق الذي تعمل فيه، فالدبابة لا تصلح للمستنقعات، والصاروخ لا يصلح لجذب الآخرين نحونا .

ويرى «المضللون» والقائمون على عمليات «التلاعب بالوعي» أن التلاعب بالوعي أكثر إنسانية حيث أن التلاعب يحقق الهدف دون إيذاء بدني أو إكراه ، وتتخلص عملية التلاعب بالوعي بقيام القائمين على الاتصال بوضع اسس عملية تداول الصور والمعلومات، ويشرفون على معالجتها وتنقيحها، تلك الصور، والمعلومات التي تحدد معتقدات ومواقف الفئات المستهدفة بالتلاعب، وتحدد سلوكها من خلال طرح أفكار، وتوجهات لا تتطابق مع حقائق الوجود الاجتماعي .. أفكار تنحو عن عمد إلى استحداث معني زائف، وإلى انتاج وعي لا يستطيع أن يستوعب أو يتقبل بإرادته الشروط الفعلية للحياة القائمة أو يرفضها سواء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي ليست سوى أفكار مموهة أو مضللة .

يرى باولو فريير إن تضليل عقول البشر «أداة للقهر» فهو يمثل «أحد الأدوات التي تسعى النخبة من خلالها إلى تطويع الجماهير لأهدافها الخاصة»؛ فباستخدام الاساطير التي تفسر، وتبرر الشروط السائدة للوجود، وبما تضيفه

عليها من طابع خلاب يضمن المضللون التأييد الشعبي لنظام اجتماعي لا يخدم في المدى البعيد المصالح الحقيقية للأغلبية، وعندما يؤدي التضليل الإعلامي للجماهير دوره بنجاح تنتفي الحاجة إلى اتخاذ تدابير بديلة.* (٧)

ويرى باولو فرير أن تضليل الجماهير لا يمثل أول أداة تتبناها النخب الحاكمة من أجل الحفاظ على السيطرة الاجتماعية؛ فالحكام لا يلجأون على التضليل إلا عندما يبدأ الشعب في الظهور (ولو بصورة فجأة) كإرادة اجتماعية في مسار العملية التاريخية، «أما قبل ذلك فلا وجود للتضليل»*(٨) بالمعنى الدقيق للكلمة) بل نجد بالأحرى قمعاً شاملاً إذ لا ضرورة هناك لتضليل المضطهدين عندما يكونون غارقين لأذنانهم في بؤس الواقع ، ويؤكد فرير أن أغلب البشر قد تعرضوا للقمع*(٩)

ويرى جور فيدال أن العبقرية المرعبة في إجادة فنون التضليل ما أحدثته النخبة السياسية الأمريكية في قدرتها على إقناع الناخب الأمريكي بالتصويت ضد أكثر مصالحه أهمية .*(١٠)

* (٧) هيربرت شيللر، هيربرت أ. شيللر، المتلاعبون بالعقول .. كيف يجذب محركو الدمى الكبار في السياسة والإعلان ووسائل الاتصال الجماهيري خيوط الرأي العام؟، ترجمة : عبد السلام رضوان ، عام المعرفة ، العدد ٢٤٣ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٩٩٩ - ص ٥

* (٨) هيربرت شيللر، مرجع سابق - ص ٦

* (٩) هيربرت شيللر، مرجع سابق - ص ٦

* (١٠) هيربرت شيللر، مرجع سابق - ص ٧

كان سحر التضليل يكمن في إعمال قاعدة بسيطة من قواعد اقتصاد السوق؛ فامتلاك وسائل الإعلام، والسيطرة عليها شأنه شأن أشكال الملكية الأخرى متاح لمن يملكون رأس المال، والنتيجة الحتمية لذلك أن تصبح محطات الإذاعة، وشبكات التلفزيون، والصحف، والمجلات، وصناعة السينما، ودور النشر مملوكة جميعاً لمجموعة من المؤسسات المشتركة، والتكتلات الإعلامية؛ بما يجعل الجهاز الإعلامي جاهز تماماً للاضطلاع بدور فعال، وحاسم في عملية التضليل .

يحصّر شيلر صناعة التلاعب بالعقول في خمس أساطير جرى ترويجها بعناية وذكاء، حتى باتت تلك الاساطير تشكل الإطار التضليلي لإيهام العقول بأن ما يقدم لها هو الحقيقة، وتتمثل هذه الأساطير التي تسيطر على الساحة الإعلامية بوصفها حقائق في:

- أسطورة الفردية، والاختيار الشخصي.
- أسطورة الحياد .
- أسطورة الطبيعة الإنسانية الثابتة .
- أسطورة غياب الصراع الاجتماعي .
- أسطورة التعددية الإعلامية .

حاول شيللر كشف القوي المتحكمة في تضليل الجماهير، والتلاعب بوعيتها، وكشف الوسائل التي يتمكنون بها من إخفاء وجودهم، وإنكار تأثيرهم أو الوسائل التي يمارسون السيطرة التوجيهية في ظل ممارسات تبدو في ظاهرها معتدلة أو طبيعية؛ فنجاح عمليات التلاعب بالوعي تتوقف على مدى قدراتها على أن تبدو طبيعية، ومنطقية على التخفي.* (١١)

الكلام عن الوفرة في الكم في انتاج المواد الإعلامية، وتنوعها في المضمون هو أخطر أنواع الخداع، والتضليل؛ فالمواد الإعلامية المنتجة في المجتمعات المتلاعب بها مأخوذة من إطار مرجعي واحد يحدده حراس البوابات، ولا يمكن التخلي عنه؛ فالمادة الترفهية، والأخبار، والمعلومات العامة، والتوجهات والأفكار من مصدر واحد قد يختلف الأسلوب، والتعبير المجازي لكن الجوهر واحد، ويحدها شرطين :

١ - إشاعة ثقافة الاستهلاك، وتثبيت دعائم مجتمع الاستهلاك .

٢ - رفض المادة التي تنظر إلى المجتمع نظرة نقدية .

.. وأيضا الكلام عن الحياد يحمل في طياته أخطر أنواع التضليل؛ فلا يتم استحضار مفردات : الحياد، والموضوعية إلا في إطار تمرير رسائل غير

* (١١) هيرت شيللر، مرجع سابق - ص ٩

بريئة محملة بالهوى والغرض !!

يعتمد التضليل، و«التلاعب بالوعي» على التكرار، والتأكيد بصورة غريبة، ومشوبة بالغموض، وأحياناً بطريقة ملتوية تعتمد على التفتيت، وتجزئة المعلومة بمعنى التأكيد على النظرية التي تحصر المشكلات في بؤر Focalized View بدلاً من رؤيتها بوصفها أبعاد لكل واحد !!

وأحياناً يعتمد التضليل و«التلاعب بالوعي» على الإغراق السلبي في تيار معلومات تحت مُسمى «التغطية الفورية»، وعندما يتم مواجهة القائم بعملية الاتصال بحقائق مخالفة يتم التعامل مع الموقف بأسلوب «التقويمات المعادلة» التي تدعم وجهة نظر القائم على الاتصال !!

.. في إطار التلاعب بالوعي تسهم «صناعة الإنسان» و«تنميط البشر» و«قولبة العقول» بالجزء الأكبر في تحقيق «منتج بشري» بالمواصفات المطلوبة حيث لا يخلو النظام التعليمي من مرحلة الابتدائية حتى مستوى الجامعة من غرض ايدلوجي مقصود .. يدعم هذا التوجه الايدلوجي «إرهاب الكتاب المدرسي» لصناعة ثقافة الأفراد، ومن ثم التحكم في سلوكياتهم عبر خطط تم الإعداد لها مسبقاً بما يحقق أهداف الدولة، ومؤسساتها الرسمية المتوافقة مع أهداف القوى، ومؤسسات غير رسمية لصناعة شرعية النظام الحاكم، وقبول

.. وصناعة «الإنسان ذو البعد الواحد»

أفكاره، وسياساته عبر صناعة القناعة، والرضا من خلال «صناعة الثقافة»، وتوظيفها لها للانتقال من مرحلة السيطرة على المعارضة إلى مرحلة صناعة إنسان، ومجتمع بلا معارضة، وهو ما يطلق عليه هربرت ماركوز (١٨٩٨ - ١٩٧٩) صناعة: «الإنسان ذو البعد الواحد» .

«الإنسان ذو البعد الواحد»:*(١٢)

كانت نقطة انطلاق هربرت ماركوز الأساسية لما أسماه «الإنسان ذو البعد الواحد» هي الطاقة الهائلة التي بات المجتمع المعاصر يتمتع بها «مجتمع التكنولوجيا، والصناعة المتقدمة» وما تحقق من هذه الطاقة من هيمنة على الفرد تتجاوز من بعيد كل أشكال السيطرة التي مارسها المجتمع في الماضي على أفرادها لقد كانت السيطرة على مر العصور شكلاً لا عقلانياً، وبسبب طابعها اللا عقلاني هذا على وجه التحديد كان في وسع الإنسان يوماً أن يعقلها، ويفضحها، ويطالب بوضع حد لها، .. بيد أن السيطرة الاجتماعية في عصر التقدم التكنولوجي تتلبس طابعاً عقلانياً يجرّد كل احتجاج، وكل معارضة من سلاحهما.* (١٣) .

* (١٢) هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، ط ٣، دار الآداب بيروت ١٩٨٨.

* (١٣) هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، مرجع سابق - ص ١٣

يؤكد ماركوز ان الطابع العقلاني للسيطرة على المجتمع تتمثل في قدرة المجتمع بفضل التطور التقني على استباق كل مطالبة بالتغيير، وعلى تحقيق هذا التغيير تلقائياً بحيث تبدو النظرية النقدية المطالبة بتجاوز هذا المجتمع هي «اللا عقلانية»، ولكن هذا ليس إلا ظاهر الأمور ليس إلا .. ويؤكد ماركوز أن التمييز بين الظاهر، والواقع ليس بالأمر السهل دوماً*(١٤).

ومن هنا كان هذا المجتمع أحادي البعد مجتمعاً يحيلك باستمرار إلى ذاته، ويجرد من المعني كل محاولة لمناواته، ومعارضته مادام يلبي حاجات الناس بغض النظر عن مشروعيته، ولا يهم في قليل أو كثير أن تكون الحاجات التي يلبيها هذا المجتمع حاجات حقيقية أم كاذبة؛ حاجات إنسانية حقا أم حاجات مصطنعة، ومفروضة فرضاً!!*(١٥).

إن الجواب عند ماركوز لا يقبل التماساً: إنها حاجات وهمية من صنع الدعاية والإعلان، ووسائل الاتصال الجماهيري، وإذا كان المجتمع يحرص على تلبية هذه الحاجات المصطنعة؛ فليس ذلك لأنها شرط الإنسان ذي البعد الواحد القابل بالمجتمع ذي البعد الواحد، والمتكيف معه، وما الإنسان ذو البعد الواحد إلا ذاك الذي استغنى عن الحرية، وإذا كان هذا الإنسان يتوهم بأنه حر لمجرد أنه

* (١٤) هريبرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، مرجع سابق - ص ١٣

* (١٥) د. علي عباس مراد، الهندسة الاجتماعية .. صناعة الإنسان والمواطن، مرجع سابق ص ٢٦

يستطيع أن يختار بين تشكيلة كبيرة من البضائع، والخدمات التي يكفلها المجتمع لتلبية «حاجاته» فما أشبهه من هذه الزاوية بالعبء الذي يتوهم بأنه حر لمجرد أنه منحت له حرية اختيار سادته!!*(١٦).

يرى ماركوز أن قوة المجتمع ذي البعد الواحد تكمن في أمرين :

١ - الطابع العقلاني للاعقلانية .

٢ - انقسام المجتمع إلى طبقات مستغلة .

.. وهذا المجتمع يمويه انقسامه الطبقي الواقعي بظاهر التلاحم الطبقي؛ فالعامل، ورب العمل يشاهدان نفس البرامج التلفزيونية، والسكرتيرة ترتدي ملابس لا تقل أناقة عن ملابس ابنه مستخدمها، والزنجي الذي لا يتمتع بحقوقه المدنية يمتلك سيارة كاديلاك فارهة، ولكن هذه المظاهر لا تعني أن الطبقات قد زالت، وإنما تدل في الحقيقة على مدى مساهمة الطبقات السائدة في تحديد الحاجات التي تضمن استمرار السيادة لها.*(١٧)

.. وإذا كان في وسع الإنسان أن يميز مجتمع السيطرة غير الحر من خلال

* (١٦) هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، مرجع سابق - ص ١٢

* (١٧) هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، مرجع سابق - ص ١١

تسلسل الرقابة فيه؛ فإن المجتمع ذا البعد الواحد قد قفز قفزة هائلة إلى الأمام في طريق تزييف وعي الفرد عندما استبدل الرقابة الخارجية المفروضة من فوق بنوع من الرقابة الداخلية المستبطنة، وقد اثبتت هذه الرقابة الداخلية فاعليتها، ونجعها إلى درجة بات معها الفرد الذي يأبى الانصياع، والامتثال للمجتمع يعتبر عاجزاً بل مريضاً نفسياً لا في نظر المجتمع بل في نظره هو بالذات .. إن المجتمع ذو البعد الواحد لم يزييف حاجات الإنسان المادية فقد بل زيف حاجاته الفكرية؛ فالفكر عدو لدود لمجتمع السيطرة؛ لأنه يمثل قوة العقل النقدية السالبة التي تتحرك في اتجاه ما يجب أن يكون لا باتجاه ما هو كائن، وهذه القوة في خاتمة المطاف قوة أيولوجية، والحال أن المجتمع ذو البعد الواحد قد أحاط الأيدلولوجيا بالإزدراء، والتحقير باسم عقلانية التكنولوجيا؛ بما جعل المدنية التقنية هي الأيديولوجيا، وأبرز وجوها هي الالتزام بالواقع المعطى أو القائم، ونبذ المفاهيم الشمولية أو النقدية التي تهدد بالكشف عن بُعد آخر لذلك الواقع.* (١٨).

.. لصناعة «الإنسان ذو البعد الواحد»، يؤكد هيربرت ماركوز على دور وسائل الاتصال في تحويل المصالح الخاصة المحددة إلى مصالح مفترضة لكل البشر بما يعني هيمنة المجتمع على الفرد أعظم من ذي قبل، وأن مجتمع اليوم يتفرد عن غيره من المجتمعات السابقة في استخدامه التكنولوجيا بدلاً من العنف

* (١٨) هيربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، مرجع سابق - ص ١١

* (١٩) هيربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، مرجع سابق - ص ١١

للوصول إلى تلاحم القوى الاجتماعية في حركة مزدوجة :

- انتظام أمثل ساحق في سير المجتمع

- وتحسن مستمر في مستوى المعيشة* (١٩)

وبقدر ما يبدو الجزء الأول من هذه الحركة مضمون التحقيق دائماً يبدو الجزء الثاني منها قابلاً للتقصير فيه أو حتى إغفاله تماماً ويرى ماركوز أن المجتمع الصناعي المتقدم يُحرم النقد من أساسه الحقيقي؛ فالتقدم التقني يرسخ نظام كامل من السيطرة والتنسيق والذي يقوم على إشاعة مفاهيم دعائية عن المصلحة القومية تلقى قبولاً على أنها تعبير عن الإرادة العامة، والتي يطلق عليها والتر ليبيرمان : «فبركة الموافقة» ..

يرى ماركوز أن «فبركة الموافقة» تعتمد على صناعة ثقافة الأفراد ومن ثم سلوكياتهم عبر تخطيط أهداف الدولة ومؤسساتها الرسمية ووأهداف القوى ومؤسسات غير رسمية لصناعة شرعية النظام الحاكم، وقبول أفكاره وسياساته عبر صناعة القناعة والرضا عبر صناعة الثقافة وتوظيفها لها للانتقال من مرحلة السيطرة على المعارضة إلى مرحلة صناعة إنسان ومجتمع بلا معارضة* (٢٠)

* (١٩) هيربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، مرجع سابق - ص ١١

* (٢٠) د. علي عباس مراد، الهندسة الاجتماعية .. صناعة الإنسان والمواطن، مرجع سابق ص ٣٩٢

ينتهي ماركوز من تحليله إلى أنه إزاء المظاهر الكلية (التوتاليتارية) لهذا المجتمع ما عاد ممكنا الحديث عن حياد التكنولوجيا؛ فالمجتمع التكنولوجي نظام سيطرة يعمل على نفس مستوى تصورات التقنيات، وإنشاءاتها التي جعلت من العقلانية التكنولوجية عقلانية سياسية* (٢١)

وإذا كان كتاب : «الإنسان ذو البعد الواحد» يتحدث فيه ماركوز عن :«نظام السيطرة الناعمة» المتاح للمجتمع التكنولوجي، وقدرة نظام السيطرة الناعمة في المجتمعات الحديثة، والمعاصرة على صناعة الإنسان ذي البعد الواحد بفضل برامج ومؤسسات، ووسائل وأساليب الهندسة الاجتماعية التي تصممها هذه المجتمعات، وتطبقها، وتستخدمها بما يناسب طبيعتها، واحتياجاتها، وأهدافها .

.. الثقافة هي التي تشكلنا، وصناعة الثقافة تستهدف بالدرجة الأولى «التشوية الأيدلوجي»، والإنسان عندما يفكر في ذاته، وغيرها من الذوات، والموضوعات بمنظار عقله الذي تصنعه ثقافته، وتحدد أبعاده، ومدياته فإنه سيرى كل عنصر من عناصر حياته بمنظار هذه الثقافة، ويسميه بلغتها، ومفرداتها؛ لتكون صناعة ثقافة الإنسان في حقيقتها، وواقعها هي صناعة الإنسان، وأساليب، وأدوات فهمه، وتفسيره لتفاصيل الحياة كلها، دون أن يستتبع ذلك صحة، وموضوعية هذه الرؤية، وذلك الفهم، والتفسير، ومطابقتها للواقع بالضرورة* (٢٢)

* (٢١) د. على عباس مراد، الهندسة الاجتماعية .. صناعة الإنسان والمواطن، مرجع سابق ص ٣٢

* (٢٢) د. على عباس مراد، الهندسة الاجتماعية .. صناعة الإنسان والمواطن، مرجع سابق - ص ٢٩٣

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

يؤكد ماركوز أن مجتمع الاستهلاك قد أفسد الجميع، وصار الجميع ضحايا، ومنومين، وما عادو يتصرفون بإرادتهم الحرة، وصار الإنسان أحادي البُعد ما داموا يتلاعبون به، وصار المجتمع منظومة شمولية جديدة من خلال التنويم، ووسائل الدعاية التي تغرس في الوعي الفردي حاجات كاذبة، وعبادة الاستهلاك.

تصورات تعميق الشرخ بين الواقع والذات !!:

.. الشعب المصري يصف نفسه - بما رسخته التقولات في ذاكرته الجمعية، وجعلته مكوناً رئيساً متجذراً، ومتجدداً في معتقده المتوارث - دون تمحيص - بأنه: «هو الذي دهن الهواء دوكو»*(٢٢)، و«هو الذي ثقب التعريفة»*(٢٣)، و«هو الذي عبأ الشمس في قوارير زجاجية»، و«هو الذي باع الميه في حارة السقاين»، و«أنه شعب مالوش كتالوج» بمعنى أنه لا سبيل إلى فهم مكوناته، وأنه شعب لا مثيل له في ماهية تفكيره، ولا نظير له في الوجود، والتي يلخصها في مقولته الشعبوية: «إحنا مش أي .. أي، ولا زي .. زي»!!

* (٢٢) دوكو : طلاء من الألوان مخصص لطلاء السيارات بطريق رش الرزاز.

* (٢٣) التعريفة : عملة صغيرة من فئة الخمس مليمات تم إلغائها من التداول .

. . ولا يختلف الأدعياء من المثقفين «بلا ثقافة» في تقولاتهم عن التقولات الشعبوية عن مصر سوى في أناقة الصياغة فقط، وأحيانا جزالة اللفظ مثل الادعاء بأن مصر هي التي شهدت «بداية الحضارة»، و«مولد التاريخ» و«فجر الضمير».

وهو كلام يفتقد الدقة العلمية من الناحية الأركيولوجية فقد أثبتت الدراسات أن هناك حضارات سابقة على حضارة مصر، وأثبتت البحوث سبق حضارات كثيرة على الحضارة المصرية في الوجود، واختراع الكتابة، وتدوين التاريخ؛ فقد أثار بعض المستشرقين في القرن الماضي خلو اللغة العربية من مفهوم «الضمير **Consience**» التي نترجمها في كلمة «الضمير الأخلاقي»، ويقصد به الملكة التي تصدر بها أحكام القيمة التي من طبيعة أخلاقية؛ فكان العقل خاص بالمعرفة، والضمير خاص بالأخلاق .

ومع ذلك فغياب كلمة في لغة لا يعني بالضرورة غياب المفهوم فكلمة قلب في اللغة العربية تستعمل أحيانا بمعنى الضمير الأخلاقي لقول الحق سبحانه وتعالى: «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ - البقرة: ٢٢٥، والآية الكريمة : (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) - الأحزاب ٥، والآية الكريمة: (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) - الحج: ٤٦، وجميع هذه الآيات تربط المسؤولية الأخلاقية

فعبارة «الضمير الأخلاقي» من العبارات الحديثة في اللغة العربية؛ فهي وليدة الترجمة من اللغات الأجنبية مع أنها موجودة في قاموس «لسان العرب» ولكنها لا تحيل إلى مبدأ الأخلاق بل تعني: السر، وداخل الخاطر، والجمع ضمائر، والضمير الشيء الذي تضره في قلبك .

ادعاء الانتساب

إلى «الفراغنة» :

في إطار الفخار التاريخي الزائف يدعي المصريون المحدثون أنهم أحفاد الفراغنة، وينسبون لأنفسهم أمجادهم!!، حيث يمثل الطرح الفرعوني ملجأً أمنياً في زمن تعاني فيه مصر من هزائم متتالية فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية، وامتدت الانكسارات لتشمل المهرجانات الفنية، والمسابقات الرياضية بما استلزم استحضار «خدر الفرعونية»، وما يحدثه من أثر لطيف يدخلهم في عوالم المجد الغابر التي يصعب عودته في المستقبل القريب!!، وامتدت المهزلة لتشمل العديد من المسوخ الفنية في محاكاة للعمارة الفرعونية، دون فهم أسرارها، وحقيقة رموزها، وحساباتها الدقيقة التي تجلت في ثبات

منسوب مياه البحيرة المقدسة بمعبد الكرنك، وتعامد الشمس على وجه رمسيس الثاني يوم مولده، ويوم تنويجه !!.. والمتأمل لاستهلاك، وابتدال خيار الهوية الفرعونية كمرجعية تشكيلية، وبصرية في بعض المباني العامة يكتشف أننا أمام ابتدال، وتسطيح مضحك لمظهر العمارة الفرعونية مثل ما حدث في ضريح سعد زغلول الذي صممه المعماري عثمان محرم، ومعرض السجاد في هانوفر، والجناح المصري للسياحة في بورصة برلين، وكذلك القرية العالمية بدبي، ومبنى المحكمة الدستورية على نيل القاهرة، ومبنى تنمية الصناعات الصغيرة، والقرية الذكية، ومحطة القطارات في مدينة الجيزة .

.. لكن إلى أي مدى تتوافق جينات المصريين المعاصرين مع المصريين القدماء؟؛ فقد سقطت الدولة القديمة على يد الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد أى منذ ٢٦ قرن من الزمن تعاقب فيها على حكم مصر مئات الأجناس، وألاف الحكام بما يستحيل معه أن يتصور بقاء التسلسل الجيني على نقائه بدرجة تصل المصريين المحدثين بالفراغة !!

.. وهو ما كشفت عنه دراسة موسعة حديثة أكدت أن التركيبة الجينية للمصريين المعاصرين مقاربة لجينات سكان أفريقيا، أما جينات قدماء المصريين فهي تشبه سكان منطقة الشرق الأوسط، وأوروبا أكثر مما تشبه المصري المعاصر.

.. وقدمت الدراسة للمرة الأولى عرضاً موسعاً للتركيبة الجينية لقدماء المصريين نُشر بدورية: «نيتشر كوميونيكاشنز Nature Communications» في ٣٠ مايو ٢٠١٧، فيما يُعد إنجازاً علمياً «غير مسبوق» على حد وصف يوهانس كروس، أحد أفراد الفريق البحثي، ومدير معهد ماكس بلانك للتاريخ، والعلوم في جينا بألمانيا: «للمرة الأولى نمتلك معلومات موثوقة عن التركيبة الجينية للحمض النووي DNA للمومياوات المصرية».

.. ويؤكد كروس أن المعلومات، والتحليلات السابقة للحمض النووي لمومياوات مصرية لم تمكن من إثبات صحة الحمض النووي: «على الرغم من وجود كشوفات موسعة سابقة عن الآثار، ووجود سجل تاريخي للهجرة البشرية، والحركة في هذه المنطقة، إلا أن الدراسات المعتمدة على تتبع، وتحليل الحمض النووي القديم من المتوفين واجهتها صعوبات بسبب سوء حفظ البقايا القديمة».

.. وحلل الفريق البحثي نتائج تحليل الحمض النووي لـ ٩٠ مومياء من قرية «أبوصير الملق» التابعة لمركز الواسطي بمحافظة بني سويف بوسط مصر، وتضمن البحث ثلاث حقبة تاريخية امتدت لحوالي ١٣٠٠ سنة، وهي: عصر ما قبل البطالمة، والعصر البطلمي، والعصر الروماني، بجانب بيانات استقرائية من بحوث سابقة رصدت تحليلات جينية لسكان مصر المعاصرين.

.. وأوضح كروس أن البحث جرى باستخدام تقنية «تسلسل الحمض النووي» الحديثة، والتي سمحت بالتأكد من صحته، إلى جانب تحديد الحقبة الزمنية التي ينتمي إليها، وهو ما لم يجر اتباعه من قبل في الفحوصات التي خضعت لها المومياوات المصرية، مما «يمهد الطريق نحو اكتشاف، وفهم أشمل للتاريخ السكاني المعقد لمصر»؛ فالتاريخ السكاني لمصر ظل محل جدل لفترات طويلة، كما يشرح الباحث: «هناك مزاعم بأن الهيمنة الأجنبية التي سادت بعد دخول كلٍّ من الإسكندر الأكبر، والرومان أو الآشوريين لمصر، غيرت من التركيبة الجينية للمصريين القدماء، وجعلتها أكثر ميلاً للجينات الـ «أورو آسيوية»، ولكن من خلال البحث خرجنا بملحوظات معاكسة تماماً، إذ ما من أصول جينية تربط المصريين القدماء بسكان منطقة الصحراء الأفريقية تقريباً».

.. ويؤكد كروس أن جينات المصريين القدماء كانت أقرب في الشبه إلى سكان الشرق الأوسط منها إلى المصريين المعاصرين، وتحديدًا سكان الأناضول والمزارعين الأوروبيين القدامى.

.. وبررت الدراسة ما وصفته بـ «الامتزاج» بين المصريين، وشعوب أخرى، بما تتمتع به مصر من موقع مميز كمفتق طرق بين القارات، ووقوعها على البحر الأوسط القديم، جعل منها بيئة خصبة لتفاعلات طويلة الأمد مع

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

الثقافات الأفريقية، والآسيوية، والأوروبية منذ الألفية الأولى قبل الميلاد.

.. وأوردت الدراسة أن البيانات المستقاة من بحوث أخرى كالتي قامت بها لوكا باجني، وفريقها التابع لقسم الفنون، والآثار بجامعة كامبردج في ٢٠١٥، ونُشرت بدورية «سيل» تحت عنوان «تتبع المسار البشري بأفريقيا باستخدام ٢٢٥ تسلسلاً لأحماض نووية من إثيوبيا ومصر»، خلصت إلى أن ٨٠٪ من جينات المصري منذ ٧٥٠ عامًا «غير أفريقية»، فيما أظهرت البيانات الأكثر حداثة تمازجًا أعلى من ذلك.

.. «خلال الـ ١٣٠٠ سنة الماضية، استقبل المصريون قدرًا كبيرًا من الجينات المتدفقة من سكان جنوب الصحراء، بسبب عوامل منها كثافة التنقل على طول نهر النيل، أو تجارة الرقيق من وسط أفريقيا» كما يعلق كروس.

.. ويرى كروس أن أهمية هذه الدراسة تكمن في إعلام المصريين المعاصرين بأنهم مندمجون وراثيًا عبر أزمنة عدة مع كل من الشرق الأوسط، وشمال أفريقيا، وجنوب الصحراء، وأن هذا الخليط قد حدث في تاريخهم الحديث».

.. وبغض النظر عن عنجهيات الفخار الزائف، ومبالغات الافتراء؛ فإننا نجد

مجتمع «الفرجة»
أنفسنا أمام نوع من العبث ينطوي على نمط حياة قائم على الشعور بالذات أطلق
عليه الطبيب والمحلل النفسي الفرنسي جاك لاكان ١٩٠١ - ١٩٨١: (الشعور
المتخيل)؛ وهذا الشعور شرطاً لشعور الإنسان (متوهماً) بأنه صانع أفعاله، ويأتي
هذا الشعور المتخيل بالذاتية نتيجة لفعل الأجهزة الأيديولوجية، وتأثيرها!!

.. فنحن الشعب الوحيد في عالمنا الذي يطلق على: «الخبز» اسم: «العيش»
بمعنى: «الحياة»، و«الوجود»، كما يطلق عليه اسم: «النعمة» بمعنى: «هبة
الله»، و«الرزق»، و«القوت» بمعنى ما به قوام البدن من الطعام، ويطلق على
السعي للكسب: «أكل العيش»، و«رزق العيال»، وفي ذات الوقت لا يحترم
«قيمة العمل»، ولا يسعى لإجاده!!، بدليل أن مصر في مرتبة متدنية جداً من
التقسيم الدولي للعمل إضافة إلى رداءة المنتج المصري!!

شعب يقسم بـ «العيش والملح»، ويضعهما على عينيه بمعنى فقد البصر إذا
حنث بالقسم أو خان العهد، ومع ذلك لا يقيم للوفاء وزناً، ولا للتدين ميزانا يُسيئ
الأدب مع الخالق، والمخلوق، ويسب الدين، ويلعن الملة، ولا يحترم للأموات
حرمة، ولا للأحياء حقوق إذا تعارض اتجاه الأحداث مع أهوائه، ومطامعه،
ومكاسبه!!

شعب يجيد التظاهر بـ «التدين الشعبي»، وإبداء «الورع الكاذب»، ويبرع

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

في استغلال طقوسه، ومناخاته في الغش، والخديعة، والكسب غير المشروع والنصب، والابتزاز، والتسول!! (٩٩ ٪ تقريباً من المتسولات النساء منتقبات - في القاهرة ٤,٤٠٠ متسولة ومتسول، وفي الأسكندرية ٩٠٠٠ متسول ومتسولة، وفي الجيزة ٦٠٠, ٧ متسول ومتسولة - ، و٩٠٪ تقريباً من الرجال المسجلين في جرائم التسول، والنصب، والاحتيال، والبلطجة ملتحنون، ويبدو ظاهرياً عليهم سمات التدين).*(٢٤)

المصريون يعشقون الجنس، ويستخدمون مفراداته في بذاءاتهم، والنيل من بعضهم، وينفقون على الكيف، وأدوية الجنس (المنبهات - المغيبات - المسكرات - المخدرات - منشطات جنسية) ١٤٠ مليار جنية رغم الظروف الاقتصادية، والاجتماعية الخائفة!!

المصريون يقدسون الأم، ومع ذلك يجعلونها هدفاً لسهام بذاءتهم في مزاحهم، وتراشقاتهم اللفظية!!

المصريون لا يكفون عن الحديث عن القضاء، والقدر، والمقسوم، وفضيلة الرضا بالمكتوب، ومع ذلك ينفقون سنوياً ما يتراوح ما بين ١٠ و ٢٥ مليار جنية في أعمال السحر والشعوذة.*(٢٥)

*(٢٤)، (٢٥) بحوث المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجناحية .

ورغم إسراف المصريين في الكلام عن الشرف، وانحياز الشق الكبير من الحديث إلى جانب العرض؛ فإنهم لا يأبهون بأشكال الدعارة المقنعة، والمقننة الضاربة الجذور في التاريخ المصري، والتي أغرقت المجتمع المصري في العصر الحديث بانتشار العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج بزعم أن طرفيها المتورطان فيها «كاتبين» ورقة عليها شهود، وأخذ سلطات الضبط وسلطات التحقيق بهذه الورقة كـ «محرر عرفي» مثبت لـ «علاقة الزوجية»!! بما أسهم في انتشار الدعارة التي يطلق عليها لفظ زواج، والذي اتخذ مُسميات عدة: «زواج الإيجار، وزواج التجربة، وزواج المسيار، والزواج السياحي، وزواج الوناسة، وزواج الفريند، وزواج الويك اند، والزواج الصيفي، والزواج النهاري، والزواج بالساعة، والزواج باليوم، وزواج الدم، وزواج الوشم، وزواج الطابع، وزواج الكاسيت، وقد أعلنت بعض المصادر الحكومية أنه يوجد ٥٥٢ ألف حالة زواج عرفي بين طلبة الجامعات (وهو رقم يصعب الوثوق فيه لأن العلاقات السرية تبدأ في الخفاء، وتنتهي في الخفاء ما لم يحدث عارض غير متوقع، كما تشير بعض الجهات إلى وجود ١٠ مليون حالة خلع وزواج عرفي منظورة أمام المحاكم، و١٢ ألف قضية إثبات نسب .. لكن لم يتثنى لنا الحصول على مستند رسمي).

وبدلاً من اتخاذ تدابير قانونية واجتماعية، وأسرية تحفظ للمجتمع كيانه وتسهم في حفظ الانساب، وعدم اختلاطها بين أفرادها تحول الموضوع إلى

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

ساحة للعراك الديني موضوعها الحلال والحرام ليصل في النهاية إلى الرأي القائل بأنه: «حلال إلا قليلاً»، ولتنشأ العديد من النشاطات التي تتمحور حول تلك الظاهرة من السماسرة ومحامين لتقنين الزواج الفاسد، والكوفيرات، والدلالات والبلانات، وأطباء عيادات الإجهاض غير المشروع، وجراحين إعادة البكارة المصطنعة، وأيضاً ثارت المعارك الفقهية حول: «البكارة المصطنعة» بين من يرى أنها ضرورة من ضرورات «الستر الواجب شرعاً»، وبين من يرى أنها خداع لا يجوز يترتب عليه فساد، وبطلان عقد النكاح !!

التاريخ «السري»

للمجتمع المصري :

يتحدث «المتلاعبون بالوعي» كثيراً عن شموخ الأهرامات، وعظمة الفراعين؛ لكنهم لا يأتون ذكراً لمقابر العبيد «بناة الأهرامات»، والتي تقع على بعد ٥٠٠ متر من الأهرامات في سراديب حفرت في الأرض لعدة كيلومترات؛ لتكون مقابر للبؤساء الذين شيّدوا الأهرامات على مدى مائة وثلاثين عاماً، حملوا خلالها ثمانمائة مليون صخرة تزن الواحدة منها طنين - تقريباً - جاءوا بها من أسوان إلى حيث الجيزة الآن (٩٨٠ كيلومتراً)؛ ليشيدوا تسعة أهرامات، ستة صغيرة وثلاثة كبيرة؛ لتصبح فيما بعد صروحاً تذكارية للفراعين؛ حيث

لم يثبت حتى الآن أن الأهرامات استعملت كمقابر حسبما شاع في عهود مضت!!.

شيد خوفو الهرم الأكبر ليخلد ذكراه .. لكن من أتوا بعده لعنوه، ولعنوا ذكراه، ونهشوا عرضه - كما جاء في وصف هيردوت - وكانت أصداء أعماله البائسة تتردد إلى الوقت الذي زار هيردوت فيه مصر سنة ٤٥٠ ق . م تقريباً، يقول هيرودوت :

« إن خوفو كان فرعوناً في غاية الخبث، والشر، وقد أضاع كل ثروته.. الأمر الذي دفعه إلى إرسال ابنته إلى أحد بيوت البغاء، ومعها أوامر بتدبير مبلغ معين له، وفعلت البنت ما أمرها به، ولكن أملاً في أن تُذكر بشيء آخر كانت تطلب من كل رجل ضاجعها حجراً على سبيل الهدية، وبهذه الأحجار قامت ببناء واحد من الأهرامات الضخمة التي لا تزال قائمة على هضبة الجيزة بالقرب من نهر النيل » * (٢٦)

.. بالتأكيد أن الحكاية التي رواها هيردوت ليست دقيقة؛ فقد كانت الدعارة مهنة مقدسة في مصر القديمة، وكان يُطلق على البغايا في مصر الفرعونية «بنات آمون»، بمعنى «بنات الإله»، وكن يُقسمن إلى طوائف، تسيطر على

* (٢٦) بول أرون، ألغاز تاريخية محيرة، ترجمة: شيماء طه الريدي، مؤسسة هنداوي - القاهرة ٢٠٥ -

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

كل منها سيدة يطلق عليها «رئيسة الحريم»، وقد استمرت هذه المهنة، وراجت في مصر تحت حكم الرومان!!

.. لكن الثابت تاريخياً أن حروب الإفرنج التي يطلق عليها زوراً: «الحروب الصليبية» قد أتت إلى مصر، ومعها عشرات الأف من الموامس، والعاهرات لكي يكن في تلبية رغبات المحاربين، ومع انكسار تلك الحملات، ورحيلها ضاقت بهم المسفن؛ فتركوا هؤلاء النسوة لمصائرهن؛ فكانوا جوارى، ومحظيات، ومومسات!!

.. وفي العصر المملوكي كانت الدعارة من المهن التي تحظى برعاية الدولة؛ لأنها تفرض عليها ضريبة معينة تدر دخلاً للخزانة السلطانية؛ فقد كان على من ترغب في احترام الدعارة أن تذهب إلى «ضامنة المغاني» التي كانت بمثابة الراعية الرسمية، وممثلة من يحترفن الدعارة .

وفي العصر العثماني كانت توجد مقاطعة التزام تختص بتحصيل الرسوم من النساء والمغنيات والعوالم والبغايا.

.. ومع قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر ساد الانحلال المجتمع المصري، وتغيرت بعض عادات المصريين، كانت البغايا من المصريات كثيرات وفقيرات

ورخيصات لكنهن - في الغالب - كن غير مغريات، وقبيحات، ومصابات بالأمراض، .. وقد أدى ذلك إلى تفشي الزهري والسيلان بين جنود الحملة؛ فكتب الجنرال ديجا (حاكم القاهرة) إلى بونابرت في عام ١٧٩٩ يقول:

«البغاء وراء تفشي الوباء في مساكن الفرنسيين، ولا بد من إغراق من يقبض عليهن في الثكنات، وكان تعقيب نابليون على الهامش: «كلف أغا الإنكشارية بهذه المهمة»، وقد نفذ أغا الإنكشارية المهمة؛ فقطع رؤوس ٤٠٠ مومس، ووضع الجثث في غرائر، وخاطها، وألقاها في النيل .

أما كبار ضباط الحملة فقد حلوا مشكلتهم دون أن يبذلوا جهداً؛ فقد كتب أحدهم لصديقه يقول : «لقد ترك لنا الأمراء المماليك بعض النسوة الأرمنيات، والكرجيات اللطيفات التي استولين عليهن صالح الأمة» .

يقول الجبرتي: «إن الجواري السود كن أشد رغبة، واستعداداً من الأرمنيات، والكرجيات» .. إن الجواري السود لما علمن رغبة الفرنسيين في مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجاً، ونظن الحيطان، وتسلفن إليهم من الطبقات، ودلوهم على مخبات أسيادهن، وخبايا أموالهم، ومتاعهم، وغير ذلك» .

وشأن كل البلاد المنكوبة بالإحتلال جر ولع الفرنسيين بالنساء استهتاراً

واضحاً بالأدب العامة يقول الجبرتي :

«فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر، وحاربت الفرنسيين بولاق، وفتكوا بأهلها وغنموا أموالها، وأخذوا ما استحسوه من النساء والبنات اللاتي صرن مأسورات عندهم فزينوهن بزى نساءهم، وأجبروهن على طريقتهم في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياة بالكلية، وتداخلت مع هؤلاء المأسورات غيرهن من النساء الفواجر؛ لما حل بأهل البلاد من الذل، والهوان، وسلب الأموال، واجتماع الخيرات في أيدي الفرنسيين ومن والاهم، وشدة رغبتهم في النساء، وخضوعهم لهن، وموافقة مرادهن، وعدم مخالفة هواهن - ولو شتمته أو ضربته - فطرحن الحشمة، والوقار، والمبالاة، والاعتبار، واستملن نظراءهن، وأختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات، وخصوصاً عقول القاصرات.»

إلا أن قيادة الحملة وجدت أن المشكلة أكبر من أن تواجه بمثل هذه الحلول؛ فأقامت في غيط النوبي المجاور للأزبكية أبنية للبقاء على هيئة خاصة، واستقدمت المومسات من أوربا وجنوب آسيا، وفرضوا على من يدخلها رسماً معيناً إلا إذا كان يحمل تصريحاً من قيادة الحملة يبيح له الدخول مجاناً .

.. وهناك الكثير من الدلائل التي تشير إلا أن الدعارة كانت تتزايد في مصر

خلال عهد محمد علي، وهو أمر لا يعود إلى انهيار مفاجئ في الأخلاق أو أي زيادة مفاجئة في الرذيلة على نحو ما تمثله كوتشوك هانم، وخليص تختها، ورقصتها الشهيرة (رقصة النحلة) التي تتخفف فيها من ملابسها حتى تصل إلى العري التام، والتي خلدها جوستاف فلوبير في: «رسائل فلوبيير»؛ كان انتشار الدعارة نتيجة التوسع الجائر برعونة، ودون روية في التجنيد الإجباري، ومشاريع السخرة أن تزايدت الدعارة بشكل غير مسبوق لما ترتب على التفكك غير المسبوق للحياة الأسرية الذي نتج عن سياسة التجنيد النهمية التي أجبرت الألاف من الرجال على التنقل من مدينة لأخرى، ومن منطقة لأخرى تاركين خلفهم الزوجات، والأمهات، والبنات تحت وطأة الجوع؛ فاضطر العديد من الزوجات والشابات؛ وقد هجرن بهذا الشكل، وتحت وطأة الجوع أو لتجنب هلاك أبنائهن إلى العمل بالدعارة .

.. وانتشرت ظاهرة «الخولات» في المجتمع المصري، وهم مجموعة من الغلمان المخثين الذين يرقصون في الشوارع بملابس نسائية، ويقلدن حركات النساء، وأفعالهن، يصف جوستاف فلوبير هؤلاء الغلمان بقوله : «شاهدنا راقصين من الرجال .. تصوّر وغدين في غاية البشاعة، لكنهما فانتان في فسادهما، وفي نظراتهما الشذراء وحركاتهما الأنثوية، يرتديان ملابس النساء وعيونهما مكحلة، ومن حين إلى آخر كان قائد الفرقة، أو القواد الذي جلبهما، يقوم بالعزف حولهما، يقبلهما على البطن، والمؤخرة، في الظهر، ويقوم

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»
بحركات بذيئة محاولاً وضع توازن إضافية على شيء واضح في حد ذاته» .

كان جيش الباشا يشكل ضغطاً على النساء؛ فبالإضافة إلى انتشار الدعارة بين النساء تشير (سجلات ضبطية مصر) إلى إزالة بكارة الكثيرات من فتيات القاهرة، وأنهن مستعملات، .. ونتيجة حالة الفسق انتشر مرض الزهري بين الأنفار، وانتشر بين طلبة المدارس العسكرية في القاهرة؛ فحين أبلغ كلوت بك بأن عدد الطلبة المصابين بالزهري في مدرسة واحدة ٣٠٥؛ أرجع ذلك إلى عدم وجود أدب، وإلى أفعال غير لائقة، وفي النهاية قرر كلوت بك أن جذر المشكلة يكمن في الدعارة .

عن المشهد في مصر في ظل تلك الحالة من الانفلات، وصف سان جون في كتابه بعنوان : «مصر» زيارة قام بها لبني سويف في مارس ١٨٣٣ تمثل مشهداً نموذجياً للحالة الأخلاقية في مصر :

« عند وصولنا إلى المدينة كان سمة ثمة صخب، وسرعان ما اكتشف السبب كان أحمد باشا يكن قد وصل على التو من الحجاز، ومعه قسم من الجيش المصري، وكان الجنود ينتشرون في أنحاء المدينة؛ ليمارسوا المتع الفضة، وانتشرت الفتيات في المدينة، ومعهم الموسيقيين، والمغنين، والراقصات، وامتلات الفنادق بهذه الحثالة العسكرية بحيث تعذر العثور على غرفة*(٢٧)

* (٢٧) د . خالد فهمي، الجسد والحداثة، الطب والقانون في مصر الحديثة، ترجمة: بشريف يونس دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة - القاهرة ٢٠٠٦ - ص١٣٣

أرجع كلوت بك هذه الحالة من الانفلات الأخلاقي إلى ارتفاع معدلات الطلاق، وألمح إلى «الطبيعة الشبقية للنساء المصريات»!!

وبعد احتلال بريطانيا لمصر ازدهرت الدعارة تحت مظلة لامتيازات الأجنبية برعاية الاحتلال الذي جعل من العاهرات، والفنوات، والبلطجية، والبرمجية، و«شيوخ العرصات» درع لحماية فسق جنوده، ومواخير الدعارة، وتأمين قناة من أهم قنوات الحصول على المعلومات لمصلحة المخابرات الإنجليزية هم والباعة الجائلين من الأجانب المنتشرين في القرى والنجوع!!، والذي كتب عن بعض خلفياته الجنرال توماس رسل حكمدار بوليس القاهرة (١٩١٧ - ١٩٤٦) في كتابه بعنوان : «عالم الرذيلة والجريمة في القاهرة Cairo underworld»*(٢٨)، وكان يتم مكافأة تلك الفئات من أموال البديل العسكري (٤٠ جنية) الذي كان يدفعه المصريون مقابل عدم أداء الخدمة العسكرية .

وفي ظل تغيير الظروف أختلفت أشكال الدعارة، وتعددت مؤسسات القوادة؛ فالقواد لم يعد ذلك الشخص الفظ المشوة الخلقة، بل شخص شديد التهذيب .. أنيق الهدام، وغالباً ممن تسمح لهم أوضاعهم بممارسة القوادة بطريق غير مباشر، فمنهم رجال أعمال، وسياسيون، وموظفون، وأصحاب الكباريات الذين يستخدمون فتيات ممن يطلق عليهن الفنانات (المغنيات - الراقصات)،

* (٢٨) د. عبد الوهاب بكر ، مجتمع القاهرة السري (١٩٠٠ - ١٩٥١)، العربي للنشر والتوزيع - القاهرة ٢٠٠١ - ص ٧

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»
والبنات اللائي يطلق عليهن : «المستدرجات للشراب» أي فتاحات زجاجات
الخمور، وأصحاب صالات الديسكو، ومعاهد التجميل، ومكاتب الترخيم في
المنازل .

.. قدمت لنا القضية المعروفة إعلاميا بقضية: «فتيات التيك توك Tik Tok» صورة شديدة الخطورة للإتجار بالبشر عبر شبكة الانترنت، وبعض
مواقع التواصل من خلال التطبيقات سيئة السمعة التي يمكن من خلالها استدعاء
«فتاة متعة جنسية» للحضور إلى مسكنك مقابل مبالغ مالية يتم الاتفاق عليها،
أو دفع ١٠ دولارات في صورة كوينات مشتراة من التطبيق مقابل أن تمارس
أحدى «فتيات المتعة الجنسية» ابتذالها عبر النت لمدة ١٠ دقائق، وهو ما
يطلق عليه **E. Sex**.

.. «فتاة المتعة جنسية» تختلف تماما في شكلها وأسلوب ممارستها عن ذي
قبل فلم تعد الفتاة البائسة التي تتسكع في الشوارع، وتحت أعمدة الإنارة لتتصيد
زباننها؛ «فتاة المتعة جنسية» ترتدي أرقى الملابس السنييه والنظارات،
والبرفانات، وتنقل بالسيارات الفارهة، والطائرات الخاصة .. قد تكون
جامعية، وقد تكون حاصلة على درجة أعلى، وقد تكون سيدة أعمال أو ممثلة
أو مغنية .. تتحدث اللغات، وتدير أعمالها، وتروج لنفسها بأساليب تبدو طبيعية،
ومألوفة من خلال تكنولوجيات العصر، وتعقد انفاقتها من خلال شفرات وأكود

يصعب أختراقها بما يصعب عمل أجهزة الأمن؛ فقد أصبح «تسليح الجسد» من أهم أساليب الترقى الاجتماعي، والوظيفي، وعقد الصفقات الحرام، وجمع الأموال القدرة، وأصبحت «الرشوة الجنسية» عملة رائجة في سوق التداول المجتمعي.

.. وفي ظل تلك الحالة انتشر في قرى مصر ما يطلق عليه : «الدعارة الحلال» قوامها رعاى الوهابية الذين ابتليت بهم مصر، وأطرافها سمسار، وفتاة فقيرة، وثرى خليجي جاء لبقضى بعض الوقت، ومحام يحزر عقد عرفي ليتم التوفيق بين «رأسين في الدعارة الحلال» .

اللامبالاة والخمول

في حياة المصريين :

عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر أجرى علماء الحملة الفرنسية اختباراً بسيطاً على عينات مختلفة من سكان الحارات للوقوف على مدى «المشاركة الإيجابية» في مجتمع القاهرة بوضع حجر كبير أمام مداخل بعض الحارات؛ فكان المارة يعتلون الحجر، وينزلون إلى الجانب الآخر ليدخلوا الحارة، أو يلتفون حوله من أحد جوانبه، ويدخلوا الحارة دون أن يكلف أحدهم نفسه السؤال

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

عن سبب وضع هذا الحجر، أو محاولة زحزحته بعيداً عن مدخل الحارة !!

.. وقد رصد علماء الحملة الفرنسية عدة أمور أخرى أهمها:

* أن المصريين شعب شديد الكسل، والخمول حتى أن الفرنسيين قالوا: «إننا لنظنهم بلهاء أو معتوهين؛ فحركاتهم، وأحاديثهم، وأبسط انفعالاتهم، ومسراتهم تشي بعدم اكتراث مذهل لا يشغلهم طوال نهارهم سوى تدخين غلاينهم الطويلة، والتي يطلقون عليها (شبكة الدخان)، وشرب القهوة، ويستخدم الأغنياء تبغ اللاذقية الفاخر مخلوطاً بخلاصة، أو عصارة الخشاش المطبوخ أما الفقراء فيقتنعون بالتبغ المحلى مخلوطاً بنوع من عصارة القنب - الحشيش - للوصول إلى حالة من الخدر تنسيهم الأهمهم ومضايقاتهم، .. وبياع الأفيون في مقاهي القاهرة، والأفيون هو نوع من المعجون المخلوط بالأعشاب !! حتى يخيل للبعض أنهم شعب من البلهاء يقضون طوال أيامهم في استرخاء يدخنون الغلاين الطوليه» .

* أنهم شعب لا يثور بدون أيدي تحركه أو قيادة تقوده، فقد كان المحرك لثورة القاهرة الثانية بعض عناصر تابعة للمخابرات الإنجليزية، وعناصر عثمانية للضغط على الفرنسيين للجلء عن مصر !!

*انعدام المشاركة الإيجابية في الشأن العام (تجربة وضع الحجر أمام

.. وقدر رصد علماء الحملة الفرنسية في كتاب «وصف مصر» أن المصريين يتمتعون بقدرة هائلة على (الثبات الانفعالي Emotional Constancy)، والثبات الانفعالي هو قدرة الشخص على التحكم في انفعالاته، والمحافظة على الهدوء، والاتزان مهما كانت الضغوط المحيطة به؛ فالمصريون لا يكشفون عن ما يعتمل في نفوسهم عن طريق قسّمات ملامحهم، وتعبيرات وجوههم؛ فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم؛ فشكلهم الخارجي في كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه .. إذ تغلب عليه حالة من الموات .. إذ يحتفظون في ملامحهم بنفس الحيدة، وعدم التأثر سواء حين تأكلهم الهموم أو يعرضهم الندم أو كانوا في نشوة من سعادة عارمة، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة، والأحقاد، أو يغلون داخلهم من الغضب أو يتحرقون للإنتقام، وأرجع العلماء ذلك إلى الاعتقاد في القضاء والقدر، كما تعود إلى تعرضهم دوماً لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد؛ ففي كل يوم تنشأ أخطاء، وبشاعات جديدة تصبح «الغفلة» معها بالنسبة للمصريين نوعاً من الحيلة لمواجهة هذا العسف، ويحاولون من خلالها أن يتفادوا الخطر .. بما يجعل المصري أمام حالة من التسليم المستعذب للألم؛ فالشكاوي، والصيحات أمور لا فائدة منها أمام جبروت الطغاة !!*(٢٩)

(٢٩) علماء الحملة الفرنسية، ترجمة زهير الشايب، وصف مصر .. المصريون المحدثون، الطبعة ٣ - دار الشايب - القاهرة ١٩٩٢ ص ٤٤ ، ص ١٢٨

اللورد كرومر

و«هاتولي حبيبي»:

.. وجاء الاحتلال الانجليزي إلى مصر، وجاء معه اللورد كرومر المعتمد العام البريطاني في مصر، وبأسلوب المخابرات البريطانية في العمل راح كرومر يتغلغل في جميع مناحي الحياة في مصر، ويمارس اختراق المجتمع بشتى الوسائل، والأساليب، وحدث أن كان الرجل مدعواً لإحدى حفلات الزفاف مع الزعيم سعد زغلول، وكان مطرب الحفل عبده الحامولي يتغنى بأغنية يقول مطلعها:

«.. حبيبي راح هاتوه لي يا ناس..»

وراح المطرب يرددّها كثيراً، وبدأ الملل بتسرب إلى كرومر الذي دفعه الفضول لمعرفة معنى العبارة، وطلب ترجمتها، عندها اتخذها حجة على إقامة الدليل على أن الشعب المصري شعب خامل لا يحسن التفكير، أو التدبير، أو القدرة على الإنجاز؛ فحتى في العشق لا يكلف المحب نفسه مشقة البحث عن حبيبه، طالبا من الناس ان يجيئوا به إليه!!

واتخذ كرومر تلك الحكاية وسيلة يتندر بها في كل محفل لوصف طبيعة

الفرد العربي بصفة عامة، والمصري بصفة خاصة، والتدليل على أن موروثاته الثقافية انعكست على مواقفه السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وأن الشعوب العربية إتكالية، تجيد لغة النواح، حتى تستجدي عطف الآخرين ليهبوا لنجبتها من منطلق نصره الضعيف، لا من منطلق القناعة بأن لها حقاً ملزماً يحتم على الآخرين الوقوف معها لاستعادته.

وراح لورد كرومر يكشف عن عورات وجداننا، وسوء أفعالنا، وضعف همتنا، وانعدام إرادتنا .. قال اللورد كرومر في كتابه بعنوان: «مصر الحديثة» أن مصر تحكم بثلاث كلمات تبدأ بحرف C اللاتيني: «الكورباش Courbash، والسخرة Corvette، والفساد Corruption».

يقول كرومر: أنه عندما جاء لورد دوفرين إلى مصر كان عاقداً العزم على ألا يحكم هذا البلد تحت أي ظرف من الظروف باستعمال الكرياج، وأصدر منشور بذلك، وكانت النتيجة كارثية عندما لم يعد لمنظومة السخرة التي كانت مفروضة في ظل حكم الكرياج وجود، ورفض الفلاحون الذهاب إلى الأعمال بناء على طلب المديرين، ولم يعد بالوسع إجبارهم، ولم نعد قادرين على تطهير الترغ، وتوصيل المياه إلى الحقول، وبدأت الزراعة تنهار، ولم يعد في مقدورنا حماية شواطئ النيل في وقت الفيضانات العالية، .. وأدركنا الحقيقة التي مفادها أن الأمر قد يحتم جلد الشعب المصري لمنعه من الموت جوعاً .

الفساد في حياة المصريين :

.. وعن الفساد البنيوي المتجذر في أخلاق، وتاريخ المصريين يقول كرومر: «لم يحدث أن كان هناك فساد في أي بلد من البلدان مثل الفساد الذي عتش في كل أنحاء مصر .. كان المصريون يقبلون الرشاوي، ويدفعونها بدءاً من الحمار شبة العاري الذي يصيح مطالباً بالقشيش، ومروراً بالمطالبة بقرش أو قرشين من سائح فصل الشتاء، وانتهاءً بالباشا على المقام الذي يمكنه الحصول على عونة عن طريق دفع مبالغ كبيرة معظمها أو كلها تقريباً على سبيل الرشوة، كان المقاول يرشي الوزير كيما يحصل على عقد بشروط مناسبة له هو، تم يقوم بعد ذلك برشوة كاتب الأشغال حتى لا يتحرى الدقة عما إذا كانت نصوص العقد قد نفذت تنفيذاً دقيقاً، .. وكان المرؤوس يرشى رئيسه طلباً للترقية، وكان مالك الأرض يرشي المهندس للحصول على المزيد من الماء لأرضه، وحقوله أكثر مما يستحق، وكان القضاة يرتشون من المدعي، والمدعى عليه في أي قضية من القضايا، وكان القرار يصدر لصالح ذلك الذي دفع رشوة أكبر، وكان مساحو الأراضي الحكوميون يرشون لتزوير قياسات الأرض، وكان مشايخ القرى يحصلون على رشوة نظير الإعفاء من السخرة، ومن الخدمة العسكرية، وكانت الشرطة تحصل على رشوة من كل سيئ الحظ الذين تحتم

عليهم الاتصال بها، وكان المسافر بالسكك الحديدية يجد أنه من الأرخص أن يدفع بقتيشاً للحارس، أو المحصل بدلاً من أن يدفع ثمن التذكرة، وعلى سبيل التمهيد لرشوة المدير كيما يقوم بتحري مظلمة من المظالم كان يتحتم على الشاكي رشوة الأتباع الجياع الذين يتسكعون حول مكتب المديرية قبل إبلاغ الرجل الكبير شخصياً بالشكوى المقدمة.

كان واقع الأمر أن تفشي الرشوة في المنظومة الإدارية المصرية كان بلا نهاية، وكانت الحياة الاجتماعية، والحياة الرسمية المصريتان مشبعتين بالفكرة التي مفادها أن المطالب الشخصية، والمصالح الشخصية المصرية أيضاً، وبغض النظر عن عدالتها لا يمكن الوفاء بها بدون دفع بقتيش !!*(٣٠)

القواسم السلوكية في حياة المصريين كثيرة، ومتعدده، وأهمها : «الفهلوة» والجهل، والحمق، و«الدجل»، و«الأونطة»، و«الخبث»، و«البلوتيك»، و«العبطية»، و«الاستعباط»، و«الآعيب الحواة»، و«شغل القرادتية» لترويج صورة ذهنية زائفة في إطار «تواصل منتفخ»*(٣١) لا يتخلف عن ترويجه إلا

* (٣٠) اللورد كرومر، مصر الحديثة، ج ٢، ط ١، ترجمة صبري محمد حسن - المركز القومي للترجمة، عدد رقم ٢١٥٧ القاهرة ٢٠١٥

* (٣١) «التواصل المنتفخ» مصطلح أطلقه بيتر جروبر.. يقول جروبر شارحاً معنى التواصل المنتفخ : «إننا ننفخ أنفسنا وكلمة نفخ أو يملأ الهواء بالنفخ ، وهي في الألمانية القديمة bosi، ومنها نشأت الكلمة الألمانية boese أى شرير»

أنظر : بيتر جروبر ، فن العدوان: الانفعالات والطاقات، تقييدها والسيطرة عليها، تعريب : نوال الحنبلي، مكتبة العبيكان - الرياض ٢٠٠٤ - ص ٧ .

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

أشكال عديدة من الابتذال، والعجز، وقلة الحيلة، وامتهان الحرف المرذولة مثل النصب، والتسول، والابتزاز، والبلطجة، والدعارة، والإساءة إلى براءة الأطفال، والاتجار بالبشر، ولا تحقق أى نوع من (الحوكمة) التي تساعد الحكومة، والمؤسسات على حماية مصالح جميع الأطراف خاصة المتعارضة منها!!؛ فكل شيء خاضع لـ «الفصال» والمساومة و«الشطارة»!!

.. سلوك الشعب المصري يقوم في مجمله على استمرار التنطع، واستباحة الملكية العامة، وعدم احترام حقوق الآخرين في العيش المشترك، وفي المنفعة العامة، والتي تلخصها المقولة التراثية الشعبية: «أنا واقف في ملك الحكومة»؛ ف ٦٠٪ من الشوارع تقريباً تحتلها الكراشات العشوائية التي يقوم عليها البلطجية بمعاونة موظفي الأحياء الفاسدين، وأفراد منحرفين من جهاز الشرطة، و ٩٠٪ من الأرصفة تقريباً تم شغلها بواسطة المحلات والمقاهي، والأكشاك، والباعة الجائلين، والمهمشين، الأغرب من كل هذا أن مصر هي البلد الوحيد في العالم التي يطلب «الفهلويون» فيها أجراً مقابل إبداء الأمنيات الطيبة، والتفوه بالكلمات المعسولة؛ فمثلاً يقترب منك أحد الأشخاص، ويستوقفك بدون سابق معرفة قائلاً: «صباح الخير يا بيه»، ويقف لينتظر أجراً عن إلقاء التحية، أو تقترب منك إحدى السيدات بدون مناسبة قائلة: «حمد الله على السلامة يا باشا»، أو: «ربنا يخلي لك الهانم»، وتقف في انتظار أجرها عن دعواتها؛ فإذا لم تعطيتها نقود تنظر إليك في غضب كأنك اغتصبت حقها، وأهدرت مجهوداتها، وربما

مجتمع «الفرجة»
في احتقار، ومن المحتمل أن تسبك بأفزع الشتائم!! .. إن مصر البلد الوحيد التي
تم تقنين قواعد دفع البقيش، وإرساء قواعد دفع الرشاوى فيها بما أثار سخرية
العالم!!

.. والحقيقة أن مسلك الشعب المصري في عصرنا الحالي لم يكن نتيجة
تحول طفري لكنه قائم على عمليات، وتحولات سياسية، واجتماعية، واقتصادية،
وأخلاقية عميقة، ومعقدة، ومتراكمة عبر حقب طويلة، ومختلفة على مدى
التاريخ شكلت فيه تضاريس مجتمع «الفرجة»!!

.. وحتى لا يكون الكلام مطلقا على عواهنه .. نستعرض الدراسة التي
أجراها مركز دراسات المستقبل بجامعة القاهرة برئاسة د. أحمد عبد الله زايد
بعنوان: «الأطر الثقافية الحاكمة لسلوك المصريين واختيارتهم .. دراسة لقيم
النزاهة والشفافية والفساد»، بدعم من وزارة التنمية الإدارية .. تعرضت
الدراسة للتغييرات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية التي واجهت المجتمع
المصري منذ بداية الستينيات من القرن الماضي، وأدت إلى تغير بعض القيم
بشكل قد يهدد مسيرة التنمية .

وحظيت الدراسة بدعم وزير التنمية الإدارية د. أحمد درويش، ود.

ماجد عثمان رئيس مركز دعم، واتخاذ القرار بمجلس الوزراء المصري، ود. غادة موسى مدير مركز الحوكمة بالمعهد القومي للإدارة، وجاء في نتائج الدراسة تحت محتوى «النظرة لأخلاقيات المصريين»:

• يرى ٨٨,٩٪ من المصريين أن أخلاق الناس قد تغيرت هذه الأيام، بينما يرى ١٣,٣٪ أن هذا التغيير لم يكن بالشكل الكبير، ويرفض ٥,٨٪ مقولة أن الناس في مصر قد تغيرت أخلاقهم بفعل عوامل كثيرة، وأن ٨٨,٤٪ من المصريين يرون أن هذا التغيير قد سار إلى الأسوأ، بينما عبر ١١,٦٪ بأن هذا التغيير كان للأفضل.

• ويرى ٨٠,٥٪ من العينة أن الأزمة الاقتصادية تمثل أحد الأسباب القوية لتراجع أخلاق المصريين، ويمثل ضعف الوازع الديني السبب الثاني في تغير أخلاق المصريين بنسبة ٢٦,٣٪.

• وأظهرت الدراسة أن ٤٩,٦٪ من العينة لا يتقون في الحكومة نتيجة عدم وفائها بالتزاماتها، وعدم اهتمامها بالفقراء وانحيازها إلى رجال الأعمال وعدم تصديها للفساد، بينما يرى ٦١٪ أن أفعال الحكومة لا تشجع على الثقة فيها، وأكد ٧٨٪ أن التصريحات الحكومية تتنافى مع القرارات، والأفعال، ودلوا على ذلك بارتفاع نسبة الفقر، والفسل في مواجهة البطالة، وعدم مصداقية

• وكشفت الدراسة أن هناك إحساسا مرتفعا بالظلم داخل المجتمع .

• أشارت الدراسة إلي أن هناك اهتماما متزايدا بالمصلحة الفردية علي حساب المصلحة العامة، وأن ثمة ادراكا عاما بأن الزمن هو زمن الفرد، وليس زمن المجموع، وأن الظروف الصعبة التي يعيشها الفرد تجعله أقرب إلي الاهتمام بقضاياها الشخصية، ولعل المثل الشعبي الذي يقول : «كل واحد بيقول يا نفسي» هو الأكثر تعبيراً عن تلك الحالة* (٣٢)

.. وقال الباحث إنه عندما يشيع في ثقافة الناس مثل هذا القول، يكون الطريق إلي الخلاص فردياً، وليس جماعياً، وقد يكون الفساد أحد طرق الخلاص، أي أن يبحث كل فرد عن مصالحه الخاصة بطريقته الخاصة.

.. وهو ما تأكد من «تقلص المشترك» و«اتساع الحيز الخاص» في الممارسات الفردية لتوظيف الفساد في الحصول على مغانم شخصية غير مستحقة استخدمت فيها المقولة: «الجنية غلب الكارنية»، بمعنى أن المال الحرام قد تغلب

* (٣٢) وزارة الدولة للتنمية الإدارية، لجنة الشفافية والنزاهة، «الأطر الثقافية الحاكمة لسلوك المصريين واختيارتهم .. دراسة لقيم النزاهة والشفافية والفساد»، - القاهرة ٢٠٠٩

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»
على السلطة الفاسدة ليصوغ من فسادها فساداً أكبر، وأعمق، كما تحدث البعض
عن دور «الرشاوى الجنسية» في قضاء المصالح، وجاءت العبارات المعبرة
عن تلك الحالة من السقوط بـ «السيم» في «أغاني المهرجانات»*(٣٣) بلغة
عامية رديئة تعبر عن قيم منحطة، كانت «أغاني المهرجانات» من أهم أسباب
الإزاحة الثقافية Cultural Displacement للأغنية الشعبية، والإزاحة تعني
السيرورات التي تسبق انقراض ظاهرة ما، وقد أنتجت «أغاني المهرجانات»
ما يُسمى بـ «أفراح الجمعيات»!!

أفراح «الجمعيات» :

تعد «أفراح الجمعيات» أحد أشكال جمع الأموال عن طريق «النقطة»
التي تذهب لمقيم الاحتفالية على أن يتولى سدادها على أقساط حسب الاتفاق مع
متعهد الاحتفالية الذي يطلق عليه مُسمى «النبطشي»، ويتولى مسئولية إقامة
تلك الاحتفالية، والإشراف على فاعليتها بداية من تجهيز الفراشة، وإعداد
السرادق، والاتفاق مع المطربين، والراقصات، وكتابة الدعوات طبقاً لأسماء
يحددها صاحب الفرحة لكل من جامله، ودفع له «نقوطة» من قبل طبقاً لقواعد

* (٣٣) ظهرت أغاني المهرجانات في مصر مع أواخر سنة ٢٠٠٧ كان مضمونها يتحدث عن مشكلات الفقر
والتهميش والمخدرات وخيانة الصداقة وهدر الزمان وقسوة الأهل، ولاقت إقبالاً من سانقي التكاك وسانقي
الميكروباس والتاكسي والباعة الجائلين .

متفق عليها فاللون الأحمر في بطاقة الدعوة يعني ضرورة الحضور لكون المدعو مدين بمبلغ نقطة لصاحب الفرح، وعليه الحضور للسداد إما بدفع مبلغ النقطة الذي حصل عليه من قبل أو يزيد عليه أما الدعوة المكتوبة بلون القلم الأزرق فتعني أن المدعو ليس مدينا، ويدعوه صاحب الفرح للحضور، وله حرية الاختيار في مجاملة صاحب الاحتفالية !!

.. ويتولى شخص يطلق عليه «شاويش الفرح» الإعلان عبر مكبرات الصوت عن شخص القادم لسداد النقطة، وتحيته بـ «سلام كبير» ليتولى المسئول عن التحصيل كتابة اسمه في «دفتر الفرح»!!

كانت «أفراح الجمعيات» في البداية وسيلة لحل أزمة مالية، وسداد الديون، ولكنها تحولت فيما بعد إلى أسلوب لجمع الأموال الفذرة لتمويل الأعمال المشبوهة كتجارة المخدرات، وغسيل الأموال، والدعارة، والاتجار بالبشر وإنعاش حفلات أغاني المهرجانات، والعاملين فيها من مؤلفين، وموسقيين ومطربين، وراقصات، ونقل فنون الابتذال إلى الأحياء الشعبية بما يتناسب مع امكانات سكانها بدلاً من انتقال الجمهور الشعبي إلى علب الليل بأسعارها التي لا تتناسب معهم !!

.. وعندما توجه دعوة لشخص مدين بالقلم الأحمر، ولا يأتي لسداد ما

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»
عليه يعد «متخلفاً»؛ فيقوم صاحب الفرح بالاستعانة فيما بعد بأحد الأشخاص
المختصين لإجبار المتخلفين على دفع مديونياتهم مضافاً إليها غرامة تأخير،
ويحصل ذلك الشخص الذي غالباً ما يكون بلطجي مقابل ذلك على نسبة من
الأموال المحصلة.

.. وانتشرت تلك الاحتفاليات في الأحياء الشعبية، وليس شرطاً أن يكون
لدى مقيم الاحتفالية مناسبة حقيقية تستحق الاحتفال؛ فكثيراً ما يلجأ مقيموها
إلى اصطناع المناسبة بتأجير من يقومان بأداء دور العريس، والعروسة بمقابل
مالي، وبعضهم يعلن عن إقامة «فرح الجمعية» بمناسبة عيد ميلاد، أو عقيقه أو
ظهور، أو «ليلة لأهل الله» دون خجل مما يحدث من ابتذال، وعري، ودعارة
وترويج للمخدرات، وشرب المسكرات !!

مجتمع الفرجة :

في سنة ١٩٦٧ صدر كتاب «مجتمع الاستعراض» أو «مجتمع الفرجة»
للفيلسوف الفرنسي جي ديبور Guy Debord*(٣٤)، كان الكتاب غامضاً في
كثير من أجزائه بالإضافة إلى صعوبة اللغة التي كتب بها، وغموض سياق

* (٣٤) جي ديبور، مجتمع الفرجة، ترجمة أحمد حسان ، دار شرقيات للنشر والتوزيع - القاهرة ٢٠٠٠

المناخ الفكري، والثقافي الذي انبثق عنه، وكان الكاتب لا يتحدث عن مجتمع بذاته، ولكن عن نمط حياة في مجتمعات مأزومة دون تحديد، حيث يرى أن الحياة هذه المجتمعات قد سقطت أسيرة تصور عمق الشرخ بين واقعها وذاتها!!

«مجتمع الفرجة» هو المجتمع الذي أصبح فيه السكان أقل معرفة، وخبرة بجيرانهم، وقل من حولهم عدد الأصدقاء، والأقارب بسبب تراجع الحركة اللفظية في الحياة .. ويصف دييور «مجتمع الفرجة» بأنه مجتمع «ثقافة الاستهلاك» و«مبدأ الجهد الأقل»!!

عن «ثقافة الاستهلاك» يتحدث دييور عما سماه «صنمية السلعة» أي السيطرة على المجتمع بواسطة أشياء تفوق الحواس، وهي محسوسة كذلك .. هذا المبدأ يبلغ تحققه المطلق في «الفرجة» حيث يُستبدل العالم المحسوس التي تملوه بالسلعة التي تقدم نفسها على أنها هي الشيء الوحيد المحسوس بلا منازع*(٣٥)

وتبلغ «الفرجة» مداها في اللحظة التي تُحقق فيها السلعة احتلالها الكلي للحياة الاجتماعية، ولا تصبح السلعة مرئية فحسب بل ان المواطن لا يعود باستطاعته أن يرى سواها؛ فالعالم الذي يراه هو عالمها*(٣٦)

* (٣٥) جي دييور، مرجع سابق ص ١٩

* (٣٦) جي دييور، مرجع سابق ص ٢٠

وعن «مبدأ الجهد الأقل»، وهي مرحلة لا يبلغها العامل الذي يتلقى الحد الأدنى للحفاظ على قوة عمله قبل الوصول إلى مرحلة الوفرة من الانتاج السلعي بما يتطلب فائضاً من التعاون من العامل فيتحول العامل من الاحتكار الكلي الذي يلقاه من كل ضروب تنظيم، والإشراف على الانتاج إلى شخص بالغ يعامل بأدب جم خارج الانتاج، وتحت قاع المستهلك، وتتولى إنسانية السلعة على عاتقها «أوقات فراغ وإنسانية العامل»*(٣٧)

.. خصص دييور جزء في مقدمة كتابه لما سماه: «الانفصال المكتمل» اقتبس من لودفيج فيورباخ تحدث فيه عن طبيعة العصر، وما يحمله تفضيل الصورة على الشيء، والنسخة على الأصل، والتمثيل على الواقع، والمظهر على الوجود، وما هو مقدس بالنسبة له، ليس سوى الا وهماً، وما هو مدنس؛ فهو الحقيقة، أو بالأحرى؛ فإن ما هو مقدس يكبر في عينية بقدر ما تتناقص الحقيقة، ويتزايد الوهم بحيث يصبح الوهم بالنسبة له أعلى درجات المقدس. «*(٣٨).

حيث يرى جي دييور أن الفُرجة ليست مجموعة من الصور، بل هي علاقات اجتماعية بين الناس التي تتم بوساطة الصور*(٣٩)، ولفهم الفُرجة في مجملها، فهي النتيجة والهدف للنمط المهيمن للإنتاج على حد سواء، وتأثيرها

* (٣٧) جي دييور، مرجع سابق ص ٢١

* (٣٨) جي دييور، مرجع سابق ص ٧

* (٣٩) جي دييور، مرجع سابق ص ١٠

على سلوك البشر، على حد قول دييور: «الاستعراض هو رأس المال، وقد بلغ من التراكم التحول عنده إلى صورة».*(٤٠)

ويقدم دييور شرحاً لطبيعة الصور التي تنفصل عن تتابعات سياقها في مجالات الحياة، وتندمج ضمن تيار مشترك، ولا يصبح من الممكن فيه استعادتها إلى سياقها من جديد؛ فالواقع المجتزء من سياقه يصبح عالماً زائفاً، ويصير موضوعاً لمجرد التأمل بما يجعل العالم المتخصص نفسه أمام مسخ في عالم الصور، حيث يكون الكاذب كذب على نفسه .. إن الفرجة عموماً قلباً عينياً للحياة، وهي الحركة المستقلة لما ليس حياً. *(٤١)

يرى دييور أن الفرجة تتلون كالحرباء في تقديم نفسها بطرق مختلفة في آن واحد .. مرة بوصفها المجتمع ذاته، ومرة بوصفها أداة توحيد، وفي حال التقديم بوصفها جزء من المجتمع؛ فإنها تركز قطاع منفصل يعد موضع للنظرة المخدوعة، والوعي الزائف، ودعاوى التوحيد التي تطلقها «الفرجة» ليست سوى لغة رسمية للانفصال المعمم*(٤٢)

الصورة تلك الحركة الدؤوبة التي تطبع تلك المجتمعات، وتتخذ أشكالاً

* (٤٠) جي دييور، مرجع سابق ص ٣٤

* (٤١) جي دييور، مرجع سابق ص ٩

* (٤٢) جي دييور، مرجع سابق ص ١١

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

متعددة مثل الإعلام والدعاية، والإشهار، وصناعة الرأي العام، كي تحوّل العالم الذي لم يعد في الإمكان الإمساك به إلى صور، و«تضعها تحت الأنظار».

أعلن ميتشل ستيفن رئيس قسم الصحافة والاتصال الجماهيري بجامعة نيويورك الدخول إلى عصر جديد، وصفه بعصر «صعود الصورة وانهايار الكلمة» في كتاب يحمل نفس العنوان «the rise of the image, the fall of the word»، والذي أكد فيه أن الصور ستكون لها اليد العليا على الكلمات بمفعول قوي يتجلى في قدرته على إقامة شرح بين الواقع ونفسه، وإحداث تصدع في الكائن الاجتماعي. ليس هذا بطبيعة الحال امتداداً للمظهر، على النحو الذي نجده عند نيتشه، الذي ذهب إلى حد إعادة النظر في أنطولوجيا المظهر، وإنما هو مجرد وصف للآلية التي غدت تتحكم في المجتمعات المعاصرة التي تحتل فيها الصورة مكانة كبرى، ويغدو فيها العالم صوراً، يغدو فيها العالم صورة العالم.

.. الصورة بطبيعتها سافرة الوجه متمردة، والكلمة حمّالة أوجه.. حق يراد به باطل وباطل يرتدى سمت الحق؛ ويراد به باطل!!، إنها ليست عنصراً زخرفياً بحيث تضاف إلى العالم الحقيقي، بل هي على النقيض من ذلك، هي جوهر عدم واقعية المجتمع الحقيقي، وتجسد الفرجة النموذج السائد للحياة الاجتماعية في كل مظاهرها المحددة مثل الأخبار أو الدعاية، والإعلان، والاستهلاك الفعلي

قال ريجيس دوبريه ما يمكن تلخيصه في التالي: «من يملك الصورة يملك البلاد»، في إشارة إلى أن الصورة في هذا العصر الذي هو بامتياز عصرها، الوسيلة الأهم في التأثير في الجمهور الواسع، عبر تدفقها الهائل، الذي يفوق حاجة هذا المجتمع للاستهلاك البصري، أو قدرته عليه.

.. مجتمع «الفرجة» .. هو المجتمع الذي يكتفي بالمشاهدة دون المشاركة أو الاشتباك مع الواقع، والتفاعل معه أو طرح المبادرات والحلول لاقتحام المعضلات!!

.. مجتمع «الفرجة» .. هو ذلك «المجتمع الجاهل» الذي يجأ بالشكوى من أوضاعه وأوجاعه، ولا يثور ولا يتمرد عليها؛ بما يجعله جزء من المشكلة!!

.. مجتمع «الفرجة» هو المجتمع الذي اختفت فيه فضيلة «الجماعية»، والتكافل الاجتماعي، ومد يد العون، وسادت فيه روح «الفردية»؛ فتحول من مجتمع متراحم، ومتضامن إلى مجموعات ممزقة من شرائح الرعايا التي تبحث عن مصالحها الفردية، وتعتبر حب النفس فضيلة وليس رذيلة، أو «مجتمع المقبرة» هو المجتمع الذي تختفي فيه الملامح الإنسانية للحياة، وتغيب مشاعر

إن منتجي الصور، ومن يبثونها عبر الوسائل المختلفة لا يريدون لها أن تكون وهماً، ولا أن يجعلونها نعتقد أن الحقيقة في مكان آخر، في المجتمع أو في الحياة، كي لا نحمل الصور على محمل الجدّ، وإنما بالعكس تماماً، فالمطلوب هو أن نصدّق أن الصورة هي نفسها الواقع، فالأمران اتحدا إلى حدّ التماهي، ولعل هذا ما عناه أحد أبرز مفكري ما بعد الحداثة، البريطاني جيمسون، حين رأى أن القيمة الاقتصادية، والبنى المادية تتحول إلى قيم ثقافية عن طريق تعميم القيم الاستهلاكية، وما يتطلبه هذا التعميم من قدرات تواصلية إعلامية، وثقافية هائلة.

يتلخص «مجتمع الفُرجة» الذي عناه جي دييور في أن العالم المحسوس تحوّل إلى مجتمع صورة يجري فيه تسليع كل شيء، وكل نشاط، وكل فكر، وأن التحولات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية أنتجت عالماً مقلوباً واقعياً رأساً على عقب، إذ أصبح ما هو حقيقي وواقعي فيه وهماً وزائفاً؛ بما يراه جي دييور عودة منمّقة إلى نظرية الاستلاب بمعنى استلاب المتفرج لصالح الشيء، في «مجتمع الفُرجة» يجري تسليع كل شيء بحيث

يتحقق مفهوم الفرجة بشكل كامل عندما تُعلن السلعة «احتلالها الكلي للحياة الاجتماعية» سواء كانت بضاعة، أو خدمة، أو فكرة .. تتوسل بالإغراء الناعم ودغدغة المشاعر، والأحاسيس الحانية لحث الناس على التماهي بين الأشياء والسلع!!

تشكل «الفرجة» بمعنى أو بآخر النموذج الراهن المهيمن اجتماعياً في مختلف المجالات، ففي جذر «الفرجة» تكمن «السلطة» في الإعلام، والاقتصاد، والسياسة، والإشهار، والمعلومات، التواصل، وفي وسائط الإعلام الجديدة المرتبطة بالعولمة، والتكنولوجيات الجديدة، وعلى كل فروع المعارف التي تواصل تطورها بوصفها فكر «الفرجة»، وأن تبرر مجتمعا لا مبرر له، وأن تشكل علما عاما للوعي الزائف.

.. في «مجتمع الفرجة» الصورة تتفوق على الكلمة؛ فالأخيرة رغم عمقها، وغزارة معانيها لا تفلح في إحداث الأثر الفوري، والسريع الذي تحدثه الصورة الخاطفة للأبصار والنفوس؛ فالصورة صانعة الواقع وسابقة عليه .. إلى حد يصبح الواقع في حد ذاته نسخة باهتة من تلك الصورة!!

.. بهذا المعنى تكون: الفرجة مجتمعاً، ويكون المجتمع فرجة.

الفصل الثالث :

« ثقافة الشرح » .. وشرح الشخصية

المقصود بـ «ثقافة الشرخ» هو التوتر المستمر بين الجذور الثقافية العربية عامة، والثقافة الشعبية المتوارثة خاصة، والثقافات الغربية التي تم الاتجاه إليها في عصور التراجع، والانحطاط المعرفي، وغياب القدوة، وازداد الشرخ اتساعاً؛ بما أصبح يهدد الهوية العربية .

.. في آداب القاهرة عمقت الدراسة الجامعية الأكاديمية «ثقافة الشرخ» داخلي، والقطني في مستنقع «ثقافة الكولونياليزم»؛ كان من المستحيل البوح بمكونات النفس في ظل إرهاب المحاضر الجامعية، والتلويح بسيف «الرسوب الدراسي»؛ .. ولذا كان لا بد الآن التوقف أمام «ثقافة الكولونياليزم» من حيث المصطلح، والمفهوم، ومحاولة تأطير مفهوم «الثقافة»!! ..

.. الكلمة الإنجليزية Colonialism اشتقاق من الفعل Colonize، والمصدر Colonization تعني في قاموس أوكسفورد الانطلاق لتأسيس مستعمرة في أراضي الآخر لتحقيق منافع اقتصادية، ولا يأتي ذكر في القاموس عن عناصر الغضب، والإكراه، والوحشية، وإهانة الكرامة الإنسانية، والإبادة الجماعية، والنهب المقترنة بالفعل، والإساءة إلى سكان تلك البلاد بدعوى عنصرية من أنهم برابرة ومتخلفون، ولا يستطيعون استغلال موارد بلادهم؛ فجاء المستعمرون ليستغلوا بدلاً منهم ويأخذوا بأيديهم للارتقاء في سلم الحضارة!! .. وهو منطق

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

ينطوي على زيف أشبه بمنطق اللص الذي يسرق المحفظة؛ لأن صاحبها لا يجيد استثمار نقوده !!

.. وفي مرحلة لاحقة عمل الاستعمار على ربط الدول المستعمرة بمركزه من خلال حركة ديناميكية، تقوم على التبعية الفكرية، والثقافية، والاقتصادية للشعوب، والتي أوجدت تشوهات ثقافية طالت الأنا، والذات، والثقافة، واللغة؛ فعلى سبيل المثال نرى أن نظام التعليم في عدد من الدول العربية يتبنى لغة المستعمر كلغة ثانية، فضلا عن التقسيم الجيوسياسي لمناطق كانت في السابق عبارة عن كتل جغرافي، وثقافي، واجتماعي واحد؛ فالفصم لم يطل فقط الواقع السياسي، إنما شمل كامل البُنى في اللغة، والثقافة، والحضارة للدول المستعمرة التي دخلت في مرحلة يصعب رصدها!!

.. ويعرف البعض «ثقافة الكولونياليزم» أنها: «بمثابة المعرفة التي تستعمل من طرف المراكز الاستعمارية لإخضاع الشعوب المحتلة، .. بمعنى تحول المعرفة إلى سلطة، وقوة، بعد أن أصبح هذا الخطاب رديفا لكل القوى، والمؤسسات التي تنتشر، وتبرر الفكر الاستعماري».

.. وبعد الاستقلال الوطني وجدت الدول التي كانت محتلة نفسها في مأزق بعد أن أصبح هذا الخطاب جزءاً من «الثقافة الجمعية»، و«الدراسات الأكاديمية»

لنتلك الشعوب بعد أن ذاب في الفكر الوطني؛ فلدينا - في مصر - كارثة حقيقية فقد لعب الاستشراق دوراً هاماً في ذلك، الأخطر من هذا أن الأمر لم يتوقف عند «الاستشراق الأكاديمي» بل تعداه إلى «الاستشراق الأدبي».

.. وقد أشاع عملاء الاستعمار من الـ Comprador الذين يعانون من «عقدة القابلية للاستعمار» أو يطلق عليهم د. إدوار سعيد «عبيد الأزمنة الحديثة» (أي المستعمرين) القيم، والمفاهيم الاستعمارية في كتاباتهم للترويج للثقافة الكولونيالية، وهذا ليس شيئاً مُحدثاً بل ظاهرة لها جذورها التي يمكن رصدها، وبعد الاستقلال الوطني ظلت ملامح تلك الثقافة قائمة في كتابات العناصر الناقلة للعدوى من العملاء، وخونة الأوطان من الخلايا النشطة، أو الخلايا النائمة، ومن يأخذ عنهم بقصد أو بجهل !!.

الثقاف :

الثقاف في أبسط تعريفاته هو حالة من «الانسحاق الحضاري» أو «الاعتصاب التربوي» أمام حالة من الغزو الثقافي، وما يتبعه من التغيير السلوكي الذي ينشأ حين تدخل جماعات من الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافتين مختلفتين في اتصال مباشر ومستمر، وما ينتج عنه تغييرات في الأنماط الثقافية الأصلية

مصطلح التثاقف (Acculturation) مستمد من كلمة acculturer، والتي تعني إمتثال، وخضوع فريق بشري كلياً أو جزئياً، لفريق بشري آخر، وتأقلمه مع ثقافة أجنبية متصل بها، أي بمعنى المثاقفة، والانسلاخ الثقافي، كما تعني أيضاً انتقال سمات ثقافية من حضارة إلى أخرى مع شعور ذاتي، وواقعي بالنقص الثقافي، وقد تناول الانثروبولوجيون هذا المفهوم من خلال الدراسات التي تناولت الأوضاع الثقافية عند الشعوب المحتلة بالتركيز على التحليل الانثروبولوجي لآثار المعتقدات والتقنيات الأوروبية، والأمريكية على المجتمعات غير التابعة لها؛ حيث خلصت دراسات الأنثروبولوجيا الثقافية إلى أنه لا يوجد في الوقت الحاضر مجتمع أو فرد ما بمنأى عن تبعات التثاقف .

.. مع ظهور العولمة، والمعطيات الاجتماعية الجديدة التي فرضتها السياسات المتعاقبة، والأزمات العالمية، والتغيرات الاجتماعية السريعة، والغزو الثقافي عن طريق الفضائيات والانترنت الممولة مخابراتياً، والموجهه من خلال مراكز البحوث Think Tanks، وما تبثه من مفاهيم، وقيم الثقافات مختلفة بكل حرية، ودون ضبط، أصبح الواقع الثقافي للفرد مرتبكاً في مجتمع فرضت عليه رؤوس الموضوعات مع مصادرة حقه في طرح الافراضات، والتضييق عليه في اختيار الإجابات بهدف تشييء البشر بمعنى يصبحوا مجرد أشياء يتم تحريكها لخدمة

أغراض مشبوهة .. عملية التثاقف التي أخذت بعدا عالميا في ظل العولمة من خلال الوقوف على مختلف الصراعات الناجمة عن هذه الوضعية التي تعيشها هذه المجتمعات، ومدى قدرة الأفراد على التأقلم، والتعايش مع تلك الصراعات خاصة المتعلقة بالجانب الثقافي .

.. أصبح «التثاقف» أداة للقهر الاجتماعي، وأحد أساليب أجهزة المخابرات في غسيل عقول البشر، وجعل الفرد والمجتمع والأمة يعيشون حالة من «الاستلاب والاعتراب في الوطن» في ظل قيم، ومعايير، وسلوكيات في الذوق، واللباس والطعام، والاستهلاك فرضتها «الثقافة الوافدة» !!

أزمة المعرفة :

.. كانت «أزمة المعرفة»، وستظل هي المأزق الأخطر في حياة الشعب المصري؛ لعدم وجود ثقافة ثابتة، وضابطة لفكره، وداعمة لسلوكه الذي يحمل خليط من الثقافات المختلفة التي تمثل سبيكة العشوائية في قوالب لغوية رديئة من فكر «البزرميط» أي «التفكير العشوائي»!!، وهي ثقافة تجمع في عناصرها السيولة، والميوعة، والمرونة، والقدرة على الحذف، والإضافة والاختزال، وتحتمك إلى معايير كثيرة في الحكم على الأشخاص، والأشياء والأحداث، والأفكار، وأغلب تلك المعايير متناقضة، ولا يجمع بينها رابط من

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

تفكير عقلاني، ومنطقي متسق يحقق مصالح كافة دونما تمييز، ومنها :

- معياري : الحلال، والحرام، وما بينهما من تدرجات الفتاوى الكثيرة والمختلفة، والتأويلات العديدة المتباينة، والتي يتم استحضارها حسب الظروف، وبقدر ما يحقق المنفعة، أو يقيم المصلحة، والتي تلعب قوة الثروة، وحنفوان السلطة، وأحياناً العصبية، والبلطجة دوراً هاماً في توجيهها في مجتمع يُلقب بالبطجي بـ «الحاج»؛ بما يحمله اللقب من صفة دينية، وتوقير اجتماعي طبقاً لمعايير «التدين الشعبي»، ويلقى ذلك البلطجي الاحترام من علية القوم !!

- معياري : العيب، واللاعيب، وما بينهما من معايير تختلف باختلاف المورثات، وتلعب «الشعبوية» دوراً هاماً في تحقيق الغلبة فيه من خلال التلويح بنوازع الغضب، والعدوان، والإرهاب، والتخويف من إصاق الاتهام بالعب، واغتيل السمعة!!

- معياري : العادات*(١) والتقاليد*(٢)، وما تمثله من عرف، والقانون

* (١) العادات : العادات هي ما اعتاده الناس من سلوك يأتي لا شعورياً وبطريقة فطرية ويتم قبوله بصورة لا شعورية ، وهو سلوك يجد القبول الجماعي وتتطلبه الجماعة دون سواه في سباقه الاجتماعي والواقع أن سمة «القبول الاجتماعي» لهذه العادات تمثل أحد المرتكزات التي تميز الأنماط الفلكلورية المختلفة بوجه عام .

* (٢) التقاليد : التقاليد هي نمط سلوكي يتميز عن العادة بأن المجتمع يتقبله عموماً دون دوافع أخرى عدا التمسك بسنن الأسلاف ، والتقليدية هنا هي الإقتصار العاطفي على التراث أو الاستعداد الفطري للولاء له .

الوضعي !!، وما تمثله تلك العادات والتقاليد من طغيان على القانون
الوضعي، وتغوّل عليه في زمن تأخرت عدالة المحاكم الناجزة التي
صارت مكلفة في ظل ارتفاع أجور المحامين!!

«البطجة» أحد آليات

«الضبط الاجتماعي» !!:

.. ومع بداية التسعينيات من القرن الماضي طرأ مستجد خطير على
آليات «الضبط الاجتماعي»، وهو الحضور الكثيف لـ «البلطجي» في الحياة
العامة باعتبارها أحد آليات الضبط الاجتماعي، والسياسي، والأمني الذي يرفع
الحرص عن الأداء غير المنضبط للشرطة في ظل انهيارات سياسية، واقتصادية،
 واجتماعية تنذر بتحويلات غير مأمومة على أمن البلاد القومي وهي :

١- توحش الخصخصة، وتسريح العمالة، والشروع في المشروع
النيوليبرالي، وعدم مراعاة البعد الاجتماعي، وتحول جحافل العمال إلى المجال
الخدمي دون سابق خبرة أو تأهيل.

٢- اشتداد الحرب على الإرهاب .



الشارع المصري تحت سطوة البلطجية

٣- توسع المناطق العشوائية .

٤ - انسحاب الشرطة من الأحياء الشعبية، والمناطق العشوائية مع الاكتفاء بالمراقبة الخارجية عن طريق المرشدين تاركة سكانها يعيدون إنتاج توازناتهم الحياتية، وتشكيل علاقاتهم طبقا لـ نظرية «الدارونية الاجتماعية .. البقاء للأصلح» التي صاغها هربرت سبنسر في كتابه بعنوان : «الرجل ضد الدولة»، والذي يؤكد فيه أن المجتمع جزء من الطبيعة، ويخضع لقوانينها، ويدعو إلى عدم التدخل في عملية التطور لأن تدخل الدولة أو الجماعات الأخرى في هذه العملية يعيقها، وقد يؤدي إلى نتائج سلبية.

.. وتصنف أنواع وأنماط البلطجية إلى: الشبكات الكبرى، وهؤلاء مؤسسات كبيرة، ولها مكاتبها في القاهرة، والجيزة، والأسكندرية، والمحافظات، ولها أدوار متنوعة مثل حماية الملاهي الليلية، التأمين الشخصي للفنانين، والفنانات، العمل في الانتخابات، سواء لمصلحة أحد المرشحين أو لترتيبات أمنية، وسياسية أوسع لضبط عملية الانتخابات مع الحزب الوطني، وأمن الدولة مثلما حدث في ٢٠٠٥، و٢٠١٠، وحل النزاعات بين العائلات الكبيرة التي تعمل بالإجرام، إنهاء، وحسم نزاعات الأراضي، والعقارات الكبيرة،.. ويتراوح أجر البلطجي بين ١٠٠ جنية في اليوم، و ٥٠٠ جنية في الساعة حسب المهمة الموكلة إليه،

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

وقدراته الإجرامية، وقد ضخت بعض الدول التي من مصلحتها إفشال ثورة ٢٥ يناير، وعدم اكتمالها بعشرات الملايين من الدولارات لتمويل عمليات البلطجة؛ فظهر الممثل طارق النهري في الشارع، وهو يقود جحافل البلطجية في استنساخ للعملية أجاكس في إيران التي قادها الممثل الإيراني شعبان جعفري بدعم من المخابرات البريطانية، وتمويل من المخابرات الأمريكية، ويقدر عدد البلطجية المسجلين في مصر يتراوح ما بين ٥٠٠,٠٠٠ بلطجي و٦٥٠,٠٠٠ بلطجي (وهو رقم يصعب التأكد من صحته) خاصة في ظل انضمام الباعة الجائلين إلى جحافل البلطجية تحت تأثير «الغواية بالمصلحة» حيث يقوم موظفو الأحياء بحصرهم، ونسخيرهم في أعمال بلطجة مقابل الوعد بإعطائهم أكشاك، أو منحهم ٥٠ جنية ووجبة !!

صناعة البلطجي :

.. «البلطجي صناعة» حيث تقوم الأسر التي تتعيش على البلطجة بتدريب أبناءها على حرفة إيقاع الأذى بالآخرين، وكان يطلق على تلك العينة من البشر «العيال الأشقياء»، ومع تطور الأوضاع، وزياد الطلب على البلطجية أصبحت البلطجة «صناعة حكومية» حيث يقوم قسم الشرطة بتحويل أغلب شباب المناطق الشعبية، والعشوائية لـ «مسجلين خطر»، بالتعبير الشعبي



اعتداء «المواطنون الشرفاء» على الزميلة نوال على يوم الأربعاء الأسود - ٢٥ مايو ٢٠٠٥ أمام نقابة الصحفيين

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

«يعمل له كارته»، وهذه العملية تشمل الأشقياء، وغير الأشقياء، وربما تلعب الصدفة دوراً كبيراً فيها؛ فوجود أحد الأشخاص في مقهى أثناء حملة بوليسية أو اعتراضه على سلوك أحد الضباط أو الأمناء تجاهه أو تجاه أسرته؛ فيُلقي به في هذا المصير ليصبح مسجلاً خطراً أو شقيماً «صاحب كارته» بالقسم!!، ليتم توظيفه لاحقاً في أعمال إجرامية لمصلحة السلطة، مثل قمع التظاهرات أو استخدام العنف في الانتخابات، أو أحياناً أعمال فساد شخصية لمصلحة الضباط أو الأمناء أو أحد معارفهم .

.. وأمام الضربات الموجعة التي تلقتها وزارة الداخلية، وخسائرها اليومية من الجنود، والضباط مما حدا باللواء محمد عبد الحليم موسى مستعيناً ببعض رجال الدين إلى طرح مبادرة «وقف العنف»، وهو ما رفضته القيادة السياسية، وأقالت الوزير بطريقة مهينة، من ثم كان البحث عن بديل فكان قيام الداخلية بعمل ما يسمى بـ «الروابط» في الصعيد، وهي عائلات، أو مجموعة من الأفراد يقومون بالسيطرة على قراهم، ومناطقهم، والطرق المؤدية لها، لدحر الجماعات الإسلامية، والقبض عليهم، أو قتلهم في مقابل مزيد من مد نفوذهم الاجتماعي، والاقتصادي (اقتصاد المخدرات والسلاح تحديداً)!!، ومن هنا تشكل اقتصاد سياسي جديد في صعيد مصر مرتبط بالأمن، والجريمة في آن واحد.

في المرة الأولى تسألنا عما حدث، .. ويحدث للمصريين في كتابنا بعنوان: «فئران المركب» .. دراسة في التاريخ الاجتماعي، كان التساؤل تحت تأثير حالة من الصدمة تُعرف بـ «صدمة الثقافة»*(٣)؛ مما أصاب المصريين من «التنمر» العقور في مواجهة مرضى، وشهداء كورونا، وامتد إلى أطباء العزل الصحي، وطواقم التمريض، ورفض شباب بعض القرى أن يدفن شهداء كورونا في مقابر القرية، ورفض بعض الأهالي استلام جثامين ذويهم مما حدا بالنيابة العامة لإصدار قرارها بدفنها في مقابر الغرباء، ومن جانب الأطباء كان الاستعلاء المهني، والمبالغة في الأجور؛ مما كشف حالة التوتر بين الأطباء، والمرضى، وكشف عن تغيير خطاب الأطباء لمرضاهم، والاعتداء على الأطباء من قبل أهالي المرضى !!

.. كانت المأساة في «جائحة كورونا» أكبر من أى تصور فـ «كل البروتوكولات غير مؤكده، .. وكل الاختبارات غير مؤكده»، كان الجميع يسير في نفق مظلم ليس به نقطة ضوء واحدة، ولا يوجد من يعرف الحقيقة كاملة، وكان لابد أن يكون لدى الجميع طريقا يسيرون عليه، ولا يختارونه، وكان الأخطر في «جائحة كورونا» أنها كشفت أزمة الاشكاليات، والعثرات، وبالتحديد أزمة «تشكيل الهوية المهنية للأطباء» في مصر.

* (٣) «صدمة الثقافة»: صدمة الثقافة هي: «إزالة وتحريف للعديد من الإشارات الخفية والمألوفة التي اعتاد الناس عليها، واستبدالها بإشارات خفية أخرى غريبة..».

الإشكاليات والعثرات في الهوية المهنية للأطباء:

توالت أزمات مهنة الطب منذ نشأتها على أسس علمية في عهد محمد علي، وبعد موت محمد علي، ورجوع كلوت بك إلى فرنسا أغلقت مدرسة الطب، وتدهورت المهنة، ولم يعد يدرس الطب سوى أبناء الأثرياء الذين يدرسونه في جامعات أوروبا، ويعودون إلى البلد لتأسيس مشروعات صحية في ظل ليبرالية العهود الملكية، وكان كل طبيب يحلم بـ ٥ ع (عيادة - عروسة - عربية - عزبة - عمارة) .. بمعنى الثراء من منطلق الندرة المهنية، وباعتبارهم فئة تبحث عن تميزها الاجتماعي، ولكونهم من أكثر المهن حساسية، وارتباطاً بالواقع الاجتماعي، والتكوين الثقافي، أخذاً ورداً في علاقة تبادلية قل أن نجد لها بمثل هذه الحيوية في مهنة سواها .

.. وبعد انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وبعد التحولات السياسية في العهد الناصري التي يدعى فيها الثورية، ومصالحة الجماهير تلقت مهنة الطب دفعة إلى الأمام من خلال ااضفاء بُعد جديد على دور الدولة في المجال الصحي، ورعاية المرضى كجزء من تلبية معظم احتياجات الشعب؛ فقد أخذت الدولة على عاتقها توفير رعاية صحية شاملة، وعادلة للجميع .

.. إلا أن هذا التوجه صادفه الكثير من العقبات إذ سرعان ما تنافر مع مصالح مهنة تهتم بوضعها الاجتماعي، وبالمميزات المرتبطة بها، والقائمة على الحرفة الفردية، والعلاقات مع العملاء من المرضى، وهكذا سرعان ما اصطدمت المهنة مع النظام السياسي الجديد، ومع تزايد الضغط على النقابة في الستينيات من القرن الماضي خاصة مع تحول النظام السياسي إلى النظام الاشتراكي وإنشاء الاتحاد الاشتراكي العربي؛ فأصبحت نقابة الأطباء ملعباً للصراع بين الدولة ومهنة الطب .

.. وفي النهاية ينجح الاتحاد الاشتراكي العربي في تطوير النقابات المهنية؛ فتغدو هياكل ضعيفة لتدخل منعطف السبعينيات، وهي على هذه الحالة .

وبدلاً من أن يلجأ النظام الناصري إلى إشراك أصحاب المهنة - المعنيين بتطبيق سياستها العادلة من أجل تلبية الاحتياجات الصحية المشروعة للشعب - في وضع السياسات الصحية، ورسم الخطط الموكلة إليهم تنفيذها - لجأ على العكس من ذلك في السيطرة على نقاباتهم، وإجبارهم على تنفيذ سياسات، وتوجهات لم يشاركوا في وضعها، ولم تتح لهم الفرصة للاقتناع بأهميتها وضرورتها؛ ومن ثم كانت النتائج غير مرضية، وتمثلت في : تدني إدارة المنظومة الصحية وضعف الخدمات المقدمة وقصورها في مشاريع الدولة الصحية كالتأمين الصحي والوحدات الصحية بالقرى والأحياء .

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

وفي عصر الرئيس السادات، وفي ظل سياسة الانفتاح أُطلق العنان للقطاع الخاص في المجال الصحي، ولمهنة الطب، وانتشرت المستشفيات الخاصة بأسعار، وتكلفة تفوق احتمال المصريين، ومستوي دخولهم، .. وكان الاستبعاد الكامل من تلك المنظمة للعوام ومساكين الناس* (٤)، وتبنت مؤسسات العلاج الخاصة فكر الليبرالية الطائشة بمقولات متسفلة: «اللي ما معهوش ما يلزموش!!» بمعنى أن «الموت أولى بمن لا يمتلك تكلفة علاجه.»، وفي عهد الرئيس مبارك استمر الحال من سيء إلى أسوأ، وقد بلغ الأمر الحجز على جثث الموتى بدون دفن استيفاء لنفقات العلاج !!

وأخيرا .. وفي ظل «جائحة كورونا» كشفت الوقائع عن ضعف الكفاءة المهنية للطبيب المصري رغم أن الدولة وضعت كل امكانياتها للعبور من الأزمة .. كما كشفت «الجائحة» أيضا عن الانحاط الأخلاقي، والاجتماعي لبعض الأطباء حيث أعلن أحدهم على صفحته على بعض مواقع التواصل الاجتماعي أن: «الطب مهنة .. مش صدقة، ومش وقف خيري، وحياة الطبيب مش صدقة جارية.»، ولم يتم استدعاؤه للتحقيق معه بـ «لجنة آداب المهنة» بنقابة الأطباء التي أدى القسم في حرمها .

لم يطلب المرضى صدقة، .. ولا عمل خيري .. أنما طلبوا «طب عادل»

* (٤) سليفيا شيفولو، ترجمة: ماجدة أباطة، الطب والأطباء في مصر .. بناء الهوية المهنية، والمشروع الطبي، المركز القومي للترجمة، العدد ٩٥٥ - القاهرة ٢٠٠٥ - ص ١٢، ١٣

تتوازن فيه الخدمة المقدمة مع الأسعار المطلوبة !!

«فئران المركب»!!:

في ظل ما كشفت عنه «جائحة كورونا»، كان السؤال عما حدث للمصريين
ضرورة !!

.. ولماذا سيادة «الأنا» وغياب «النحن»، وغلبة المصالح الفردية على
المنفعة العامة؟!!

.. وبعد البحث والاستقصاء اخترت أن يكون العنوان : «فئران المركب»
.. ليرمز إلي ما استقر في عقيدتي من توصيف لحالة «الخواء الاجتماعي»
التي تتلخص أعراضها في تفكك الروابط بين الفرد، ومجتمعه، وتعرض البنية
المجتمعية للتكسر، والتحلل، وتفشي الجريمة، والفوضى، والتفكك الأسري،
والانهيار الحضاري، ومصطلح «فئران المركب» من نتاج العامية المصرية،
وأمثالها الشعبية لنتت أولئك الأفراد الذين يسقطون الاعتبارات الاخلاقية،
وينتهجون أساليب فردية - ربما - تنطوي على مخالفة الشرائع، والقوانين لما

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

يعتقدون أنها حلول ذاتية تحقق أمالهم، وتلبي احتياجاتهم، وتحقق مصالحهم دون أن يراعوا في أهلهم إلا ولا ذمة، .. ويقومون بنفس أفعال «فئران المركب» التي تغرق؛ فيقفزون من المركب الغارقة لمركب اخرى لا يبكون على شيء، ولا يهتمهم إلا مصلحتهم فقط.

كانت الحقيقة التي استظهرها البحث أننا أمام الحالة التي وصفها كارل مانهيام باسم : «حالة الأنوميا Anomie» وتعني : «خواء اجتماعيا»، وهي حالة ليست جديدة على المجتمع المصري؛ فهي مزمنة، ومستوطنة منذ قرون، وضاربة الجذور في عمق التاريخ، ومتجذرة في عقل، وسلوك المواطن المصري، ومن أهم سماتها أنها ظاهرة تغطس وتطفو .. تختفي متزامنة مع الازدهار الاقتصادي، وتظهر مع الانهيار الاقتصادي، وسوء الأحوال المعيشية، وتتخلص أعراضها في تفكك الروابط بين الفرد ومجتمعه، وتعرض البنية المجتمعية للتكسر والتحلل، وشيوع الجريمة، والفوضى، والتفكك الأسري، والانهيار الحضاري لأن الوجود الفردي لم يعد راسخ الجذور في وسط مجتمع غير ثابت، وغير متكامل، وغير موحد، ويفقد الشطر الأكبر من نشاط الحياة معناه، ودلالاته، واتجاهه، وإن ظلت هناك قوة تحمل اسم «الدولة» تبطش بالمستضعفين حفاظاً على هيكل السلطة، .. ولكن بنية المجتمع باتت بنية عقيم مصابة بحالة من فقدان المناعة؛ فالمصريون منذ أن سقطت دولتهم القديمة

على يد جحافل الفرس بقيادة قمبيز في القرن الخامس ق. م . أي منذ ٢٦ قرن من الزمان، وهم يعيشون في معزل عنصري (أبارتهد Apartheid)، ولم يكن لهم شأن في إدارة شئون بلدهم أو فاعلية في بناء مجتمعاتهم أو اختيار مستقبل حياتهم أو مشاركة في قضية قومية تجمع بينهم يشحذون لها طاقتهم، ويدافعون عنها أو وسيلة لتجميع خبراتهم الاجتماعية في ضوء مصالح مشروعة مشتركة.

.. وتعاقب الغزاة على مصر طوال تاريخها (فرس - الأغريق - رومان - عرب - أتراك - فرنسيين - إنجليز) لهم السلطة، والإدارة، وعلى المصريين الطاعة والفلاحة!! حيث كان الفلاحون يمثلون السواد الأعظم من الشعب، وكانوا موضع احتقار الغزاة في تلك العصور، وقد قال ابن خلدون عن الفلحة « إنها معاش المستضعفين ويختص أهلها بالمذلة» .

وقد أورثت تلك الحالة المصريين حالة من عدم الثقة في الحكومات المتعاقبة على مدى التاريخ، وجعلته يتوقع منها الأذى فقط، ولا ينتظر منها نعمة، وقد لخص ذلك في المثل الشعبي : «جبتك يا حكومة تحميني .. جبت النار، وكويتيني!!».

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

.. ذكر تقي الدين المقرئ في تقريراً عن الحالة الاجتماعية للمصريين في سنة ٨٠٨ هـ - ١٤٠٥ م في كتابه بعنوان: «إغاثة الأمة بكشف الغمة» عما تعرض له المصريون من المجاعة، والأوبئة، وأرجع المقرئ ذلك إلى «سوء تدبير الزعماء والحكام، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد» !!

وقد ترك لنا المؤرخون العمالقة الذي حفل بهم العصر المملوكي من سنة ١٢٥٠ - ١٥١٧ مؤلفات عظيمة حفظت لنا دقائق التاريخ الإنساني للعصر الذي كتبت فيه من أمثال كتابات ابن حجر في مؤلفه: «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»، والمقرئ في مؤلفه: «المواعظ، والاعتبار بذكر الخطط، والأثار»، وابن فضل الله العمري في مؤلفه: «مسلك الأبصار في محالك الأمصار»، وابن إياس في مؤلفه: «بدائع الزهور في وقائع الدهور»، والقلقشندي في مؤلفه: «صبح الأعشا في وقائع الانشا»، والسخاوي: «التبر المسبوك في ذيل السلوك»، وأبو المحاسن ابن تغر بردي في مؤلفه: «النجوم الزاهرة في ملوك مصر، والقاهرة»، وابن خلكان في مؤلفه: «وفيات الأعيان»، وجمال الدين السيوطي في مؤلفه: «حسن المحاضرة بأخبار مصر، والقاهرة»، .. وقد ساعدت تلك المؤلفات في بعض ما اشتملت عليه على فهم طبيعة «الحياة الاجتماعية» في مصر .

كانت معاناة المصريين في القرى، والحضر تفوق طاقة الاحتمال في

العصر المملوكي؛ فقد شهد العصر المملوكي ٦١ مجاعة ووباء ما بين سنة ٦٦٢ - ٩١٩ هـ (١٢٢٥ - ١٥١٣م) في كل من عصر المماليك البحرية، والمماليك الجراكسة .

كانت المجاعات والأوبئة كثيرة، ومتراصة، ومتتالية بحيث لا يمكن أن نتتبع كل منها على حدة، ولكنها جميعاً تشترك في كونها تحالفت مع ظلم الحاكمين وعبث العربان، واللصوص، والمماليك المفسدين لطحن جموع المصريين؛ فقد عاشت في مصر آنذاك طائفة كبيرة من سواد المصريين لا يكادون أن يحصلوا على قوت يومهم، أو يجدون ما يستر أجسادهم فضلاً عن جماهير الفلاحين التي كانت حياتهم في عصر سلاطين المماليك تجسداً لمأساة تتضافر عليه كوارث الطبيعة، وظلم الحكام، وكان طبيعياً أن تبدو الحياة في نظر عامة المصريين مستحيلة، وكريهة بسبب عوامل الإحباط المتحكمة في حياتهم اليومية .

.. ولم يكن الناس يملكون إزاء تلك الكوارث، ونوازلهما سوى الاستسلام والتضرع إلى الله لكي يرفع عنهم الوباء، والبلاء، ولم تعرف تلك الفترة ما نعرفه من إجراءات وقائية، وعلاجية مثل عزل المصابين، والحجر الصحي، وإغلاق المناطق الموبوءة، وغير ذلك من وسائل العصر الحديث لمقاومة الأوبئة .

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

.. وفي غالب الأحوال كان الناس يفسرون هذه الكوارث تفسيراً دينياً، وأخلاقياً خالصاً؛ فيرجعون أسبابها إلى غضب الله من جراء فساد الأخلاق، وانتشار الفسق، والفجور، وسيادة الظلم، وهنا يلجأ الناس - حكماً ومحكومين - إلى الدين يتسربلون بردائه، ويكثر إقبالهم على العبادة.* (٥)

قاسى أهل المحروسة الكثير مثل غيرهم من أهل مصر؛ فكانت المجاعات الكثيرة التي سرعان ما تجر الوباء وراءها؛ ففي وقت المجاعة يموت الألاف من الناس؛ فتلقى جثثهم في الطرقات أو على صفحة النهر، وتأخذ الكلاب تنهش جثث الضحايا على حين يطاردها الأحياء لكي يأكلوها، ولا يجد الموتى من الغرباء من يدفنهم لاشتغال الأصحاء بدفن موتاهم، والسقماء بأمرضهم !!

وبدأت عوامل الضعف تدب في جسد الدولة؛ فانهارت الزراعة، وتفسخ النظام الإقطاعي العسكري الذي تمت صياغة الدولة على أساسه، وتزايد معدل الضرائب بالشكل الذي أدى إلى تدهور الحرف، والصناعات، وخراب الأسواق وضمور التجارة، وانهيار العملة، وكثرت مصادرة أموال الأغنياء، والتغول على أموال الأوقاف الأهلية، وصارت السلطنة عبء يهرب منه الجميع .

زادت معاناة مصر خلال الحكم العثماني بسبب عدم إعطائهم الاهتمام الكافي خاصة في مجال الصحة مما تسبب في انتشار أمراض عدة من قبيل

* (٥) د. قاسم عبده قاسم ، عصر سلاطين المماليك، ط ١ ، دار الشروق - القاهرة ١٩٩٤

الرمد، والجذري، والبلهارسيا، والاستسقاء، والدوسنتاريا، فضلاً عن العديد من الأوبئة الفتاكة التي حصدت أرواح الآلاف .

من بين هذه الأوبئة وباء الطاعون أو (الفناء الكبير) أو (الموت الأسود)، الذي ضرب القاهرة عام ١٧٩١، وبلغ عدد ضحاياه في اليوم الواحد ما بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ حالة وفاة، حيث استطاع أن يفتك بثلاث سكان القاهرة، وتسبب بازدياد الناس على الحوانيت في طلب المغسلين، والحمالين، حتى أنهم كانوا يقفون طابوراً في انتظار المغسل أو المغسلة، ولم يعد لديهم شاغل إلا الموت، وأسبابه؛ فالفرد في تلك الفترة إما مريض، أو ميت، أو معز، أو راجع من العزاء، ومراسم الدفن أو مشغول بتجهيز ميت .

ضرب الطاعون مصر في العصر العثماني، واستمر تفشي المرض على نحو متقطع حتى وقت متقدم من القرن التاسع عشر- كشفت دراسة حديثة أن فيضان نهر النيل السنوي كان يجبر مستعمرات القوارض الناقبة، وبعضها مصاب بالطاعون - على الخروج مما جعلها في تماس مع البشر في بحثها عن غذاء* (٦)، (٧)

* (٦) جوزيف بيرن، الموت الأسود، ترجمة عمر سعيد الأيوبي، سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ، هيئة أبوظبي للسياحة، أبوظبي ٢٠١٣
* (٧) أ. ب. كلوت بك - لمحة عن مصر، ترجمة محمد مسعود- دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠١١

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

لم يكن سلوك المصريين، وعاداتهم في العصور القديمة بعيدا عما يحدث في مصر في عهود قريية، ويحدث في مصر الآن من اعتبار المرض أو الموت في الوباء أحد أشكال «العار الاجتماعي» الذي يستلزم الإخفاء والكتمان !!

ففي سنة ١٩٠٢م أخفى عمدة موشا إصابة بلدته بالكوليرا حتى تفاقمت الأمور، وخرجت عن السيطرة؛ فاضطر لطلب المساعدة !!.

المأساة كما صورتها

الأعمال الأدبية :

ليس بين سجلات وزارة الصحة تاريخ لتلك الأوبئة، أو وصف لطريقة مكافحتها، وليس من بين سجلات الدولة ما يلقي الضوء على التاريخ الاجتماعي للمرضي، والموتى، لكننا وجدنا بعض صور المأساة في بعض الأعمال الأدبية؛ فقد قدم طه حسين صورة أدبية عن مأساة وباء موشا سنة ١٩٠٢م في الجزء الثاني من كتابه : «الأيام»؛ فنقل لنا صورة قلمية مؤلمة من حالة احتضار شقيقه الطالب بمدرسة الطب متأثراً بالكوليرا .. كان شقيقه يقوم بمعاونة الأطباء في الكردون (نطاق العزل الصحي) المجاور للقريية، وكتب أحمد شوقي في رثاء شهداء الوباء مقدراً ضحايا الكوليرا بخمسين ألف قائلاً :

«خمسون الفاً في المدائن صادهم

شرك الردى في ليلة ونهار

ذهبوا فليت ذهابهم لعظيمة

مرموقة في العصر أو افخار»

وكان من حسن الحظ أيضاً أن قدم لنا الدكتور نجيب محفوظ في مذكراته بعنوان : «حياة طبيب» تفاصيل طبية، واجتماعية كثيرة عن مأساة موشا، .. وكيف ذهب إليها ركباً حماراً، .. وعاش في الخيام، وعشش الطين المسقوفة بسعف النخيل ليؤدي واجبه الوطني في مكافحة الكوليرا؟!*(٨)

.. ورسم لنا الأديب خيرى شلبي صورة قلمية في روايته بعنوان: «الوتد» عن تعامل قرية «شباسي عمير» مديرية كفر الشيخ مع جائحة الكوليرا سنة ١٩٤٧، ورسم صورة لما كانت عليه الكردونات حول القرى، وكيف استطاعت السيدة القروية بطلة الرواية من خلال إجراءات بسيطة العبور بأسرتها بسلام من الوباء من خلال عزل أسرتها عزلاً منزلياً حيث قامت بإغلاق الأبواب والنوافذ بألواح الخشب، وتثبيتها بالمسامير، وقصر الطعام على الخبز الجفاف

* (٨) د. نجيب محفوظ ، حياة طبيب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة - القاهرة ٢٠١٣ - ص ٦٧ ، ٩١

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

والمش والبصل والثوم، .. والاهتمام بالنظافة الشخصية .

وقد تركت لنا الشاعرة العراقية نازك الملائكة قصيدة عن «الكوليرا»
بعنوان: «سكن الليل» أبدت فيها تعاطفها مع نكبة أهل مصر بالوباء القاتل ..
قالت فيها:

«يا حُزْنَ النيلِ الصارِخِ مما فعلَ الموتُ

طَلَعَ الفجرُ

أصغِ إلى وَقَعِ حُطَى الماشينِ

في صمتِ الفجرِ، أصحِّ، انظرْ ركبَ الباكينِ

عشرةُ أمواتٍ، عشرونا

لا تُحصِ أصحِّ للباكينا

اسمغِ صوتَ الطَّفلِ المسكينِ

مَوْتَى، مَوْتَى، ضَاعَ العَدْدُ
مَوْتَى، مَوْتَى، لَمْ يَبْقَ عَدُّ
فِي كُلِّ مَكَانٍ جَسَدٌ يَنْدُبُهُ مَحْزُونٌ»

.. لكن الأدبية المصرية من أصل لبناني أندرية شديد قدمت لنا وثيقة غاية في الرقي، والدقة في روايتها المكتوبة بالفرنسية بعنوان : «اليوم السادس»*(٩) ففي الصفحات الأولى من روايتها :«اليوم السادس»، تقدم لنا بطلة روايتها «صديقة» عائدة من قريتها في إحدى الضواحي، بعد أن أدت واجب العزاء في أقرباء للأسرة حصدهم الكوليرا، وعليها أن تعود إلى بيتها في أحد الأحياء الشعبية المتشابهة في المدينة، ومعها ذكريات مؤلمة عن رحلوا، وما ألم بالأحياء تحت وابل من رعونة الخوف، وما فعله موظفو الصحة الذين راحوا يهدمون المنازل لتي أصيب أفرادها، ويحرقون أثاثها، ويدفنون موتاها في مقابر الصحراء!! قدمت أندرية شديد وصفاً رائعاً للمدينة العربية بما يخيم عليها من السكون، والحزن، والأنين المكتوم للموجوعين، الناس فيها لا يتكلمون كثيراً، بل ينتظرون الغد، ورغم أن الكوليرا تنتقل بالعدوى، فإن الناس لا يتوجسون في بعضهم، بل إنهم هنا مترابطون، يتبادلون العزاء، والمواساة، والزيارات في النوائب على الرغم الحكومة قد رصدت مكافأة لكل من يبلغ عن بيت فيه

* (٩) أندرية شديد، اليوم السادس، ترجمة حمادة ابراهيم، المشروع القومي للترجمة، العدد ٣٧٤ - القاهرة

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

مصاب بالكوليرا؛ بما جعل السيدة تبالغ في حرصها حتى لا تأتيها الخيانة من بعض جيرانها.

تبدو المدينة المنكوبة مغلفة بحر الخماسين، والضباب، وتحاول الجدة أن تحمي حفيدها من أي أخطار، لكنها لا تستطيع أن تمنعه من الذهاب إلى المدرسة، فالحياة يجب أن تستمر، وتظهر علامات الكوليرا على الحفيد حسن الذي لم يتجاوز السابعة من العمر، وتحاول الجدة أن تحمي حفيدها جسدياً، وتعرف الجدة أن هناك وسيلة أخرى يمكن من خلالها أن تقي الصغير شر المرض الذي يستشري في جسده، وهي أن تذهب به إلى شاطئ البحر، بعيداً عن المدينة المغلقة .

وبالفعل ذهبت إلى شاطئ النهر من أجل الاتفاق مع نوتي على نقلها، ومعها الصغير، إلى إحدى المدن التي تطل على البحر الأبيض المتوسط، وفي رحلة النيل، تحاول الهروب من أن يذهب الحفيد في معسكر الأيواء، لأنها تعرف المصير الذي ينتظره هناك هو الموت .. كما أن الإبحار عبر النهر يحمل في طياته رمزية «شريان الحياة» من خلال أجواء أقل تلوثاً.

المدينة يجب الرحيل عنها، ليست المدينة بذاتها، بل أيضاً كل المدن البعيدة عن الهواء النقي المتجدد، مثلما تنسم به مدن السواحل، والصغير الذي يمثل

الغد يجب أن يبقى، والحياة يجب أن تستمر، جميلة مليئة بالمعاني الحلوة.

كانت أندريه شديد تعزف من خلال بطلتها على تيمة : «اليوم السادس
بعث حقيقي» في إشارة إلى يوم التعافي من المرض؛ لتنتهي روايتها بمقولة
البحار العجوز :

- «الطفل سيرى البحر».

وتتنهد ام حسن قائلة كلمات تشي بما يحمله البحر من معاني الشفاء :

- «الحياة، البحر .. وأخيراً البحر ..».

.. وعندما انتشرت الانفلونزا الأسبانية في مصر في الشهور الأخيرة من عام
١٩١٨م وأصاب عشرات الآلاف وحدث نوع من التكتم الإعلامي عليها حتى
يقال أن ضحاياها قد بلغ ١٨٠ ألف مصري.

عفونة المستشفيات :

قذارة المستشفيات في مصر موروث تاريخي .. بالرجوع إلى بعض
المطبوعات في دار الكتب المصرية التي ألفها كلوت بك، وبعض الأطباء

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»
وبعض المواد الأرشيفية عن سير العمل، ومنذ وقت مبكر من عام ١٨٤٨ كان
يتم تدبير شكاوى منتظمة بشأن الرائحة النتنة في المستشفيات، وهى الرائحة
التي اشتهرت بين المرضى باسم «عفونة الاسبتاليات ، وبعد تسع سنوات كان
تدبير التقارير عن القذارة والرائحة النتنة في المستشفيات، والملاءات القذرة
التي لا يتم تغييرها بعد كل مريض مازال مستمراً !!* (١٠)

وقد حكى على باشا مبارك عن هذا في مذكراته بعنوان: «حياتي» من
خلال تجربة شخصية عندما كان تلميذاً في مدرسة المهندسخانة عن مأساة
«القصر العيني»!!

وكتبت د. عفاف جمعة (يرحمها الله) في كتابها بعنوان : «يوميات الغرفة
٧٠٢٣ .. رسائل الحب والألم» عن التلوث بعدوى المستشفيات Infection
Nosocomial بنسب تفوق المعدل العالمي بكثير .

السجل الأسود

للمستشفيات في مصر :

وكتب د. سيسل ألبرت في كتابة بعنوان :«ساعة عدل واحدة .. الكتاب

* (١٠) خالد فهمي، الجسد والحداثة ، مرجع سابق - ص ٥٣

الأسود عن أحوال المستشفيات المصرية (١٩٣٧ - ١٩٤٣)*» (١١) عن ضعف مستوى التعليم الطبي، وعدم الاهتمام بالطب الإكلينيكي السريري، وعدم الاهتمام بالقواعد الطبية في فحص المرضى، واختتم شهادته بأن الأطباء يعملون لدى الحكومة، وكل ما يهم إرضاء الحكومة، وليست صحة المريض.

وعندما ابتليت مصر بوباء «المالاريا» في أواخر ١٩٤٢ كان التكتم على الأمر حتى حصد الوباء ما يقرب أو يزيد على الـ ١٢٠ ألفاً من المصريين .

في سنة ١٩٤٧م، اجتاح وباء الكوليرا العاشر والأخير مصر، وكانت بؤرة الوباء قرية القرين بمحافظة الشرقية .. كان وباء الكوليرا قد دخل القرية من خلال العمال الذين كانوا يعملون في معسكرات الجيش الانجليزي في التل الكبير، والاسماعيلية، وكان من عادة أهل القرين أن يوفر كل صاحب دار حجرة أو حجرتين يؤجرها للغرباء الذين يعملون في القرين أو بالقرب منها .

.. وحين تفشي وباء الكوليرا انتشر بادئ الأمر بين عمال «الكامبات الإنجليزية» من الغرباء على القرية، وكان الفلاحون من أصحاب البيوت

* (١١) د. سيسل ألبرت في كتابة بعنوان :«ساعة عدل واحدة .. الكتاب الأسود عن أحوال المستشفيات المصرية (١٩٣٧ - ١٩٤٣)، ترجمة : سمير محفوظ بشير، كتاب الهلال - العدد ٦٩٨ - دار الهلال ٢٠٠٩

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»
يخافون التبليغ عن الإصابات خيفة أن يعزلوا هم الآخرون، أو يحرقوا أثاث
دورهم المتواضع أو يهدموا بيوتهم، .. ويموت الغريب، وليس هناك من يسأل
عنه، .. ويحمله أهل البيت إلي الجبل؛ فيدفنونه سراً، وبدون تصريح دفن،
ويعودون فإذا سئلوا عنه قالوا: لقد فر من القرين !!، وإذا سئلوا: متي؟، أجابوا:
قبل الوباء!!، ولا مانع أن يضيفوا لحبك القصة، وإكسابها بعض المصادقية :
«أنه لم يدفع أجره الغرفة عن الشهور الماضية.»

.. وقد افتضح هذا الأمر عندما انتشرت من الجبل رائحة الموت، وذهب
بعض المستطلعين، وعادوا يقولون : أن هناك جنث تنهشها الكلاب !!؛..لأن
الذين قاموا بدفنها كانوا في عجلة من أمرهم فدفنوها علي مقربة من سطح
الأرض!!،.. وأعلن عمدة القرية أنه يتبرع لإقامة مقابر للغرباء .. هؤلاء الذين
لا أهل لهم، ولا أحباب سيكون عليهم، ويحزنون لأجلهم».

.. وقد قدمت المحاضرة التي ألقاها الدكتور سيف النصر أبو ستيت عن
الكوليرا لنا معلومات قيمة، والتي طبعتها وزارة المعارف العمومية سنة ١٩٤٨
بعنوان: «قصة الكوليرا» في مصر جاء فيها :

«ضربت الكوليرا مصر عشر مرات في تاريخها الحديث في سنوات
١٨٣١، و١٨٣٤، و١٨٥٠، و١٨٥٥، و١٨٦٥، و١٨٨٣، و١٨٩٥، و١٩٠٢،

.. ومع تفاقم الأوضاع، وازيادها سوءاً أعدنا طرح التساؤل في كتابنا بعنوان: (شعب من «الأوز» .. مقدمة في علم اللغة الاجتماعي) الذي رحنا نبحت فيه عن إجابة لذلك السؤال الذي أفض مضجعي، وأطار النوم من عيني من خلال محاولة فهم أشكال، وآليات التطور الاجتماعي، وانعكاسها على اللغة، وأثرها في خلق سياقات اجتماعية تُكتسب اللغة فيها وتُستخدم، من خلال علم اللغويات الذي يعرف أيضاً بعلم اللسانيات، وهو العلم الذي يعني بدراسة لغات البشر بما فيها اللغات المعاصرة إذ يركز اهتمام دارس اللغويات على اللغة نفسها؛ فيهتم بأصولها، وتطورها، وبنائها إلى جانب العلاقة القائمة بين لغة شعب ما، والجوانب الأخرى من ثقافته باعتبار اللغة وعاء ناقل للثقافة، والقينا الضوء على محاولات التجديد اللغوي بداية من «عصر الاحتجاج» في القرن الثاني الهجري، وإلى عصرنا الحالي .

.. كانت الإجابة واضحة، وساطعة، وكاشفة عن بعض جوانب السؤال!!،

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

لكنها أيضا لم تكن كافية أو تستطع النفاذ بعمق إلى الكثير من «البقع المعتمة» التي أصابت الشخصية المصرية في المدن، والريف على السواء، وأصابتها بفقدان قيم الرجولة، والشهامة، وانعدام النخوة، وجعلتها فاقدة التأثير أو القدرة على المشاركة، وجعلت المواطن المصري أقرب إلى «الصرصور الملقى على ظهره» يسمع، ويحس لكنه غير قادر على فعل شيء - على حد تعبير كافكا - أو إلى كائن زومبي مُعاد إلى الحياة بأسلوب الخديعة.

لذا فقد أعدنا السؤال من خلال التوسل باللغو؛ فـ «اللغة الجيدة» تُكتسب، وتُستخدم، وتنمو في ظل سياقات اجتماعية جيدة، ومنظبطة، ومنطقية، وعادلة في بيئة صحية، ومناخ نظيف، وتتوافر في مكوناتها سمات مجتمع «الجودة الاجتماعية Social Quality»، .. و«اللغة الرديئة»، والارتباك اللساني، والتواصلية أخطر أعراض داء عضال يفتك بالمجتمعات التي تعاني خلافاً في منظومة القيم الاجتماعية، وهو بؤرة اهتمام «علم اللغة الاجتماعي» بما يُطلق عليه من مُسميات إصطلاحية مختلفة منها: «علم اللسانيات الاجتماعية» أو «علم الاجتماع اللغوي» أو «علم اللغة الاجتماعي» أو «السوسيولسانيات»، وكلها مسميات لذلك العلم الذي يدرس اللغة في ضوء علم الاجتماع، ويربط بين الملفوظ اللغوي بسياقة التواصلية، والاجتماعية، والطبقي، وهو أحد حقول علم اللغة مهمته دراسة التنوعات، والاختلافات في لغة واحدة أو أكثر، وهو يسعى إلى فهم اللغة كما هي موجودة بالفعل، أى دراسة اللغة، وعلاقتها بالمجتمعات

التي تكون فيها؛ فهو يحاول الإجابة على السؤال: (من يتحدث؟ ماذا؟ وأين؟ ومتى؟ وكيف؟ ولماذا؟).

في المرة الثالثة طرحنا السؤال في كتابنا بعنوان: «الثقافة الشعبية» .. وتشكيل العقل المصري (!!)، وحاولنا إلقاء الضوء على طبيعة الموروث الشعبي بكل أنواعه، ومحاولة إيجاد تفسير انثروبولوجي للأغاني الشعبية بما تحمله من معانٍ، ودورها في تقديم أدوات درس ثرية لتحليل الواقع الاجتماعي، والثقافي للمجتمع من خلال أغاني الأفراح، والعدودة، والسامر الشعبي (الريفي - البدوي)، والإنشاد الصوفي، وطقوس الزار، ووقفنا على دور الفولكلور في تشكيل العقل المصري، وإحكام السيطرة على المجتمع، ودفعه في الإتجاه الذي يخدم النظم المهيمنة القائمة !!..

.. كان طرح السؤال في محاولة للعثور على الجواب من منطلقات المنهج الوصفي التحليلي، وتطبيقاته على السرد العامي في «كلام المصاطب»، ودور «السامر الشعبي» بما يحمله سحر الحكايا من خدر الأماني، ووهجها الذي يبث دفاء الوعود الزائفة، التي تشعل جذوة الخيالات التي تتفاعل مع الوجدان في منطقة العاطفة، وتسهم بشكل ما في تشكيل العقل المصري من خلال البنى الثقافية المتاحة.

.. ولأنه لا يمكن فهم لغة مجتمع بدون فهم ثقافته، وبدون فهم السياقات

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

الاجتماعية التي تكتسب فيها اللغة، وتستخدم،.. وتأثير تلك السياقات على الأخلاق والسلوك، وبصمتها على طبيعة العمران !!

.. لذا كان لابد من فهم لغة العامة «الملحونة» التي يطلق عليها البعض: «اللغة العامية» أو «لغة الشارع» أو «لغة المصاطب» أو «لغة المقاهي»، والنفاذ إلى باطن «الثقافة الشعبية» التي يتم تعريفها صراحة أو ضمناً مقابل الفئات المفاهيمية الأخرى: ب «الثقافة الفلكلورية» بمعنى «حكمة الشعوب» حسب التعريف الأوربي لمصطلح Folklore، أو «الثقافة الجماهيرية»، أو «ثقافة الجمهور»، و«الثقافة السائدة» في مواجهة ما عدها من الثقافة المضادة، أو «ثقافة الطبقة العاملة»، أو «الأدب الشعبي»، أو «أدب الفلاح» أو «الثقافة القولية» أو «الثقافة الشفاهية» أو «الثقافة اللفظية» أو «الثقافة المهمة بالحياة الشعبية» أو «ثقافة جمهور المدينة من الطبقة الوسطى» أو «ثقافة الصمت» أو «ثقافة الصوت المقموع»، أو «ثقافة الإرادة المقهورة»، أو «ثقافة التفكير الملغى» .

.. كانت محاولة فهم تلك الثقافة بما تحمله من رموز، ومدلولات، ودورها في تشكيل العقل المصري، ونتاج القيم الرئيسية التي تحكم سلوك الفرد بما يجعله مقبولاً من قبل السلطة المهيمنة، وفي ذات الوقت تضبط حركة المجتمع في أداء وظائفه - في حدود الممكن والمُتاح - في تنظيم الحاجات الاجتماعية

لأفراده في إطار دستورهِ الشعبي الذي صاغه بنفسه من جوانب معروفة من شخصيته، وكيانه يعبر بها عن كوامن ذاته من داخل مروياته، ومآثراته من حقائق قد يغفل التاريخ عن ذكرها!!

ووضعنا أيدينا في هذه المرة على ما يمكن أن نعول عليه؛ .. فيمكن تلخيص ما جرى للمصريين في أنه «غزو ثقافي»، و «اغتصاب تربوي» أصابا الجميع بالفهر، وجعلا الفرد والمجتمع والأمة يعيشون حالة من «الاستلاب والاعتراب في الوطن» في ظل قيم، ومعايير، وسلوكيات في الذوق، واللباس، والطعام، والاستهلاك فرضتها «الثقافة الوافدة» بعد إزاحة «الثقافة الشعبية»؛ بهدف خلق حالة من التحلل في نظام القيم الجماعية القائمة بطريق غير مباشر، وغرس قيم بديلة زائفة، وكاذبة، وخادعة، وقولية المواطنين في أنماط متشابهة كأنها خرجت للتو من خط إنتاج واحد، والخطر هنا لا ينصب على مآل «الثقافة الشعبية»، و«الأدب الشعبي» فقط، ولكن خطورته تنصب على «الجماعة الشعبية»؛ لكون أصحاب «الثقافة الشعبية» هم المستهدفون لأسباب اقتصادية وسياسية؛ فانتهاك «الثقافة الشعبية»، وتفكيك بنيتها يعني تفكك النسق المعرفي والقيمي أي تفكك الوعي، وبانهيار الثقافة الشعبية يفقد أصحابها حصنهم الثقافي الذي طالماً لجأوا إليه دائماً للدفاع عن ذواتهم، وهويتهم، وحماية تمايزهم.

في هذه المرة نحاول الإجابة على السؤال من خلال التغييرات التي حدثت

.. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد»

في العمران من خلال أمراض الترييف في المدن!! أو من خلال أمراض التمدين في قرى الأرياف!! أو من خلال سكنى العشوائيات في عشش الصفيح أو سكنى المقابر أو حزام العشوائيات (...). أو حزام القبح المسمى بـ «المدن الجديدة» أو «مدن الملح» - على حد تعبير - عبد الرحمن منيف أو «الاقتلاع من الجذور» - على حد تعبير - د. عمر الشهابي، أو «عمران اللا منتمي» - على حد تعبير - د. على عبد الرؤوف .

.. أننا لا ننكر على أحد «الحق في المدينة»، ولا نصادر حقه في الاستمتاع الكامل بكل أرجاء المدينة، والأماكن العامة فيها على أساس مبادئ الاستدامة - والعدالة الاجتماعية، واحترام كافة الثقافات الريفية، والثقافات الحضارية، وممارسة الحق في الاستمتاع بالمدينة التي تقوم على أساس الإدارة الديمقراطية للمدينة، وذلك فيما يتعلق بالوظيفة البيئية، والاجتماعية للممتلكات، وللمدينة نفسها، والممارسة الكاملة للمواطنة .

وتعود أصول هذا المفهوم إلى كتاب الفيلسوف الفرنسي هنري لوفيفر «الحق في المدينة» الذي صدر عام ١٩٦٨ في أعقاب الاحتجاجات التي اجتاحت فرنسا، وباقي الدول الأوروبية يري هنري لوفيفر أن مفهوم «الحق في المدينة» يعني مطالبة الفرد في حقة في الحياة الحضارية، وأتى ديفيد هيرفي ليؤكد أن الحق في المدينة ليس فقط حق الفرد من الحياة الحضارية، أو حقه من

المصادر التي تتمتع بها المدينة، ولكن ديفيد هيرفي يرى يعرف «الحق في المدينة» بأنه الحق الجمعي في اكتشاف، وتغيير أنفسنا عن طريق اكتشاف، وتغيير المدن التي نعيش فيها .

.. لكن لوفيفر في كتابه: «الثورة الحضرية» الصادر سنة ١٩٧٠ يتراجع عن «الحق في المدينة» بزعم أن المدينة التي كنا نعرفها، ونتاجها ونشعر بالحنين إليها قد اختفت، ولا يمكن استعادتها .. المدينة التقليدية قتلها التطور الرأسمالي .. سقطت ضحية للحاجة المستمرة للتخلص رأس المال المتراكم مما يقود إلى نمو حضري لا نهاية له بغض النظر عن عواقبه الاجتماعية، والبيئية، والسياسية .. المشكلة أن كل ذلك تم تنظيمه، وتنفيذه بشكل بيروقراطي عن طريق الاقتصاد الموجه دونما نفحة من أي مدخل ديمقراطي، أو لمحة من خيال مرح، وإنه حفر عميق لعلاقات الامتيازات الطبقية، والهيمنة على شكل المدينة نفسه .

.. ثم بدأ لوفيفر يتحول من فكرة «الحق في المدينة» إلى مسألة أكثر عمومية واتساعاً، وهي «الحق في إنتاج الفضاء المدني» في أطروحته المنشورة سنة ١٩٧٤ يؤكد أن المطالبة بالحق في المدينة أصبح يمثل مشكلة لأنه في حقيقة الأمر أصبح مطالبة بالحق في شيء لم يعد له وجود؛ إنه عبارة على «معنى فارغ»، وتعبير خالي من الدلالة، وسيبقى ذلك رهينا بمن سيملؤه بالمعنى!!

مراجع الكتاب :

- ١- د. أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان - ١٩٨٢
- ٢- جوردون مارشال ، موسوعة علم الاجتماع، ترجمة: د.محمد الجوهري وآخرون ،أوكسفورد، نيويورك ١٩٩٨ الطبعة الثانية، ٣ مجلدات - الترجمة العربية - القاهرة ٢٠٠٧
- ٣- اندرو إدجار، بيتر سيد جويك، موسوعة النظرية الثقافية .. المفاهيم والمصطلحات الأساسية ، ترجمة د. هناء الجوهري، المركز القومي للترجمة- العدد ١٣٥٧ - القاهرة ٢٠١٤
- ٤- ميل تشيرتون، أن براون ، علم الاجتماع .. النظرية والمنهج، ترجمة د. هناء الجوهري، المركز القومي للترجمة، العدد ٢٠٧٥ - القاهرة ٢٠١٢
- ٥ - فلوريان كولماس، دليل السوسيولسانيات، ترجمة : خالد الأشهب، ماجدولين النهيبي، المنظمة العربية للترجمة - بيروت ٢٠٠٩
- ٦- د. عبد العزيز نوار، تاريخ مصر الاجتماعي... منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٨٨
- ٧- اليكس إنكلز ، مقدمة في علم الاجتماع، د. محمد الجوهري وآخرون ، ، ط ٦ ، سلسلة علم الاجتماع المعاصر، عدد ١٥، دار المعارف - القاهرة ١٩٨٣
- ٨- د.حسين فهم ، قصة الأنثروبولوجيا ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، العدد ٩٨، الكويت - فبراير ١٩٩٨
- ٩- كارل بوبر، عمق المذهب التاريخي، دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية ، ترجمة عبد الجميد صبره، منشأة المعارف بالأسكندرية ١٩٥٩
- ١٠ - جينفر م. ليمان، تفكيك دور كايم .. نقد ما بعد بنوي، ترجمة محمد حافظ دياب، ط ١، المشروع القومي للترجمة، العدد ٢٠٨٥- القاهرة ٢٠١٣
- ١١ - نيكولاس جين، مستقبل النظرية الاجتماعية،(حوارات مع سبعة من علماء الاجتماع وأحد علماء السياسة وأحد علماء اللسانيات) ترجمة : يسري عبد الحميد رسلان، المركز القومي للترجمة، ط ١ - العدد ١٧٣٧ - القاهرة ٢٠١٤
- ١٢ - إيان كريب ، النظرية الاجتماعية من باسونز إلى هابرماس، ترجمة: د. محمد حسين غليوم ، عالم المعرفة - العدد ٢٤٤ ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٩٩٩
- ١٣ - سامويل هنتنجتون، صدام الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة : طلعت الشايب، دار سطور، ط ٢ ، القاهرة ١٩٩٣
- ١٤ - بيير بورديو ، أسئلة علم الاجتماع - حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي ، ترجمة ابراهيم فتحي، دار العالم الثالث - القاهرة ١٩٩٥

- ١٥ - رفعة الجادري، في سببية وجدلية العمارة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٦
- ١٦ - ديفيد هارفي، مدن متمرده.. من الحق في المدينة إلى ثورة الحضر، ترجمة لبنى صبري، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط ١ - بيروت ٢٠١٧
- ١٧ - جي ديبور، مجتمع الفرجة، ترجمة أحمد حسان، دار شرقيات للنشر والتوزيع - القاهرة ٢٠٠٠
- ١٨ - فيليب تايلور، قصف العقول .. الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي، ترجمة سامي خشبة عالم المعرفة - العدد ٢٥٦، - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت أبريل ٢٠٠٠
- ١٩ - فيدل سليستر، مدرسة فرانكفوت.. نشأتها ومغزاها - وجهة نظر ماركسية، ترجمة خليل كلفت، المشروع القومي للترجمة، العدد ١٥٤ - القاهرة ٢٠٠٠
- ٢٠ - هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، ط ٣، دار الآداب بيروت ١٩٨٨.
- ٢١ - د. على ليلة، النظرية الاجتماعية وقضايا المجتمع .. قضايا التحديث والتنمية المستدامة، ج ١، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ٢٠١٥
- ٢٢ - د. محمد الجوهري، المدخل إلى علم الاجتماع، القاهرة ٢٠٠٧
- ٢٣ - د. محمد الجوهري وآخرون، مقدمة في دراسة التراث الشعبي، ط ١ - القاهرة ٢٠٠٦
- ٢٤ - محمد الجوهري، علياء شكري، مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا - القاهرة ٢٠٠٧
- ٢٥ - أندريه شديد، اليوم السادس، ترجمة حمادة ابراهيم، المشروع القومي للترجمة، العدد ٣٧٤ - القاهرة ٢٠٠٢
- ٢٦ - وليامز هانز، ما وراء التاريخ، ترجمة وتقديم: أحمد أبو زيد، المركز القومي للترجمة - العدد ١٧٠٠ - القاهرة ٢٠١١
- ٢٧ - بحوث في الأنثروبولوجيا العربية، مؤلفون عديدون، تحرير: ناهد صالح، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، ط ١ - القاهرة ٢٠٠٢
- ٢٨ - محد سبيلا، نوح الهرموزي، موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفة، منشورات المتوسط، المركز العلمي العربي للأبحاث والدراسات والإنسانية، ط ١ - المغرب ٢٠١٧
- ٢٩ - ادجار هوفر، النظرية المكانية في اختيار المكان المنسب للنشاط الاقتصادي، ط ١، تعريب عزت عيسى غوراني، دار الأفق الجديدة - بيروت ١٩٧٤
- ٣٠ - د. محمد الجوهري وآخرون، علم الاجتماع التطبيقي - القاهرة ٢٠٠٨
- ٣١ - واسيني الأعراج من رواية «مرايا الضرير»، ترجمة: عدنان محمد، دار ورد للطباعة والنشر، دمشق ٢٠١١
- ٣٢ - عبد الرحمن منيف، مدن الملح، الأخدود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - المركز الثقافي العربي، ط ١١ - المغرب ٢٠٠٥
- ٣٣ - د. مازن مرسل محمد، حفريات في الجسد المقموع .. مقارنة سوسيولوجية ثقافية، ط ١، دار الأمان - الرباط ٢٠١٥

- ٣٤ - محمد الجوهري، دراسات انثروبولوجية معاصرة، دار المعرفة الجامعية - الأسكندرية ١٩٩٨
- ٣٥ - إدريس مقبول ، الإنسان والعمران واللسان: رسالة في تدهور الأنساق في المدينة العربية، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات - الدوحة ٢٠٢٠
- ٣٦ - د. محمد الشاهد، «الحداثة الثورية .. العمارة، وسياسات التغيير في مصر ١٩٣٦ - ١٩٦٧، ترجمة : أمير زكي، المركز القومي للترجمة ، العدد ٣٢٤٣- القاهرة ٢٠٢٠
- ٣٧ - د. عبد الوهاب المسيري وآخرون، إشكالية التحيز.. رؤية معرفية ودعوة للاجتهااد، ط ٢، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٩٦
- ٣٨ - د.الزواوي بغوره، ما بعد الحداثة والتنوير.. موقف الأنطولوجيا التاريخية - دراسة نقدية، ط ١ - دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت ٢٠٠٩
- ٣٩ - تقرير الأمم المتحدة، تقرير التنمية الاجتماعية الثالث، عدم إهمال أحد : ادماج الفئات المهمشة في بعض البلدان العربية - الأمم المتحدة ببيروت ٢٠١٩
- ٤٠ - تقرير الأمم المتحدة - جنيف - يونية ٢٠١٣، اللجنة المعنية بتسخير العلم والتكنولوجيا لأغراض التنمية، تسخير العلم والتكنولوجيا لأغراض استدامة المدن والمجتمعات شبة الحضرية
- ٤١ - علياء شكري ، وآخرون، الحياة اليومية لفقراء المدينة، دراسة اجتماعية واقعية، جامعة عين شمس - القاهرة ٢٠٠٥
- ٤٢ - حسن ظاظا، اللسان والإنسان.. مدخل إلى معرفة اللغة، مكتبة الدراسات اللغوية - عدد ١ ، دار القلم، دمشق - الدار الشامية ، بيروت - ط٢ ١٩٩٠م
- ٤٣ - ابراهيم أحمد، انطولوجيا اللغة عند مارتن هيدجر ، ط ١ ،الدار العربية للعلوم والنشر، منشورات الاختلاف - الجزائر ٢٠٠٨
- ٤٤ - شحاتة صيام، التحضر الرث، والتطور الرث، ط ١ ، مصر العربية للنشر والتوزيع - القاهرة ١٩٩٧
- ٤٥ - دارن اسيموجلو، جيمس أ. روبنسون ، لماذا تفشل الأمم .. اصول السلطة والازدهار والفقير، ترجمة: بدران حامد، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية - القاهرة ٢٠١٤
- ٤٦ - سيرجى قره /مورزا، التلاعب بالوعى ، ترجمة : عياد عياد ، وزارة الثقافة ، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ٢٠١٢
- ٤٧ - خالد زيادة، المدينة العربية والحداثة، رياض الرئيس للكتب والنشر - بيروت ٢٠١٩
- ٤٨ - نورمان فيركلف، الخطاب والتغيير تلاجتماعي، ترجمة : محمد عناني، المركز القومي للترجمة، ط ١ - العدد ٢٥٩٣ - القاهرة ٢٠١٥
- ٤٩ - الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز - طبع على نفقة الحاج عبد الرحيم الحلوجي الكتبي بشارع الحلوجي منقول عن نسخة الشيخ محمد محمود الشنقيطي المنسوخة بخط اليد والمحفوظو بالكتب خانة الخديوية نمرة ٥ - القاهرة - بدون تاريخ.

- ٥٠ - أوجدن وريتشاردز، معنى المعنى .. دراسة في أثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية، ترجمة: د. كيان أحمد حازم يحيى، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا ٢٠١٥
- ٥١ - فاضل ثامر، اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمسطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، ط ١، المركز الثقافي العربي - بيروت ١٩٩٤
- ٥٢ - جميل حمداوي، السميولوجيا بين النظرية والتطبيق، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني - المغرب ٢٠٢٠
- ٥٣ - د. عبد الوهاب المسيري وآخرون، إشكالية التحيز.. رؤية معرفية ودعوة للاجتهد، ط ٢، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٩٦
- ٥٤ - الفن جولدنز، الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي، ترجمة على ليلة، المشروع القومي للترجمة، المجلس القومي للترجمة - العدد ٦٦٧ - القاهرة ٢٠٠٤
- ٥٥ - د. على عباس مراد، الهندسة الاجتماعية .. صناعة الإنسان والمواطن، ط ١، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية الجزائر، بيروت ٢٠١٧
- ٥٦ - هريبرت أ. شيلير، المتلاعبون بالعقول .. كيف يجذب محركو الدمى الكبار في السياسة والإعلان ووسائل الاتصال الجماهيري خيوط الرأي العام؟، ترجمة: عبد السلام رضوان، عام المعرفة، العدد ٢٤٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٩٩٩
- ٥٧ - هريبرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، ط ٣، دار الآداب بيروت ١٩٨٨
- ٥٨ - بول أرون، ألغاز تاريخية محيرة، ترجمة: شيماء طه الريدي، مؤسسة هنداوي - القاهرة ٢٠٠٥
- ٥٩ - د. خالد فهمي، الجسد والحداثة، الطب والقانون في مصر الحديثة، ترجمة: شريف يونس دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة - القاهرة ٢٠٠٦
- ٦٠ - د. عبد الوهاب بكر، مجتمع القاهرة السري (١٩٠٠ - ١٩٥١)، العربي للنشر والتوزيع - القاهرة ٢٠٠١
- ٦١ - علماء الحملة الفرنسية، ترجمة زهير الشايب، وصف مصر .. المصريون المحدثون، الطبعة ٣ - دار الشايب - القاهرة ١٩٩٢
- ٦٢ - اللورد كرومر، مصر الحديثة، ج ٢، ط ١، ترجمة صبري محمد حسن - المركز القومي للترجمة، عدد رقم ٢١٥٧ القاهرة ٢٠١٥
- ٦٣ - بيتر جروبر، فن العدوان: الانفصالات والطاقت، تقييدها والسيطرة عليها، تعريب: نوال الحنبلي، مكتبة العبيكان - الرياض ٢٠٠٤
- ٦٤ - وزارة الدولة للتنمية الإدارية، لجنة الشفافية والنزاهة، «الأطر الثقافية الحاكمة لسلوك المصريين واختبارتهم .. دراسة لقيم النزاهة والشفافية والفساد»، - القاهرة ٢٠٠٩
- ٦٥ - سليفيا شيفولو، ترجمة: ماجدة أباطة، الطب والأطباء في مصر .. بناء الهوية المهنية، والمشروع الطبي، المركز القومي للترجمة، العدد ٩٥٥ - القاهرة ٢٠٠٥
- ٦٦ - جوزيف بيرن، الموت الأسود، ترجمة عمر سعيد الأيوبي، سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ،

- هيئة أبوظبي للسياحة ، أبوظبي ٢٠١٣
- ٦٧- أ. ب. كلوت بك - لمحة عن مصر، ترجمة محمد مسعود- دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠١١
- ٦٨- د. نجيب محفوظ ، حياة طبيب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة - القاهرة ٢٠١٣
- ٦٩- د. سيسل ألبرت في كتابة بعنوان: «ساعة عدل واحدة .. الكتاب الأسود عن أحوال المستشفيات المصرية (١٩٣٧ - ١٩٤٣)، ترجمة : سمير محفوظ بشير، كتاب الهلال - العدد ٦٩٨ - دار الهلال ٢٠٠٩
- ٧٠- د. محمد الجوهري، المدخل إلى علم الاجتماع ، القاهرة ٢٠٠٧
- ٧١- د. محمد الجوهري وآخرون، مقدمة في دراسة التراث الشعبي ، ط ١ - القاهرة ٢٠٠٦
- ٧٢- محمد الجوهري، علياء شكري، مقدمة في دراسة الأنثروبولوجيا - القاهرة ٢٠٠٧
- ٧٣- وليامز هانز ، ما وراء التاريخ ، ترجمة وتقديم : أحمد أبو زيد ، المركز القومي للترجمة - العدد ١٧٠٠ - القاهرة ٢٠١١
- ٧٤- بحوث في الأنثروبولوجيا العربية، مؤلفون عديدون، تحرير : ناهد صالح، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية ، ط١ - القاهرة ٢٠٠٢
- ٧٥- محمد سبيلا، نوح الهرموزي، موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفة، منشورات المتوسط، المركز العلمي العربي للأبحاث والدراسات الإنسانية ، ط ١ - المغرب ٢٠١٧
- ٧٦- ادجار هوفر، النظرية المكانية في اختيار المكان المنسب للنشاط الاقتصادي ، ط ١ ، تعريب عزت عيسى غوراني، دار الأفاق الجديدة - بيروت ١٩٧٤
- ٧٧- د. قاسم عبده قاسم، القراءة الشعبية للتاريخ، دار عين، القاهرة ٢٠١٤
- ٧٨- مجموعة مؤلفين، جدليات الاندماج الاجتماعي وبناء الدولة والأمة في الوطن العربي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط ١ - بيروت ٢٠١٤
- ٧٩- مؤلفون متعددون، تقديم وتحرير : محمد السيد سعيد، حكمة المصريين، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان - القاهرة ٢٠٠٠
- ٨٠- د. عفاف جمعة، يوميات الغرفة ٧٠٢٣ .. رسائل الحب والألم ، حواس للطبع والنشر - القاهرة ٢٠٢٠
- ٨١- على مبارك، حياتي ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ٢٠١٢
- ٨٢- ياسر بكر، حرب المعلومات، حواس للطبع والنشر - القاهرة ٢٠١٧
- ٨٣- سيرجي قره /مورزا، التلاعب بالوعى ، ترجمة : عياد عياد، وزارة الثقافة ، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ٢٠١٢

- ٨٤ - هيربرت . أ . شيللر، المتلاعبون بالعقول ، ترجمة عبد السلام رضوان - عالم المعرفة عدد ١٠٦ - الكويت، أكتوبر ١٩٨٦
- ٨٥ - ياسر بكر، «فئران المركب» .. دراسة في التاريخ الاجتماعي، E. Book - القاهرة ٢٠٢١.
- ٨٦ - دافيد إدواردز، دافيد كرومويل، حراس السلطة .. أسطورة وسائل الإعلام الليبرالية - ترجمة آمال الكيلاني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٧
- ٨٧ - سارة البلتاجي، الأمن الاجتماعي - الاقتصادي والمواطنة النشطة في المجتمع المصري، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط ١- بيروت ٢٠١٦
- ٨٨ - مجدي عبد الرشيد بحر، القرية المصرية في عهد سلاطين المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ - ١٢٥٠-١٥١٧)، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٩
- ٨٩ - د. قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ط ١، دار الشروق - القاهرة ١٩٩٤
- ٩٠ - د. أحمد يوسف، المخطوط السري لغزو مصر، كتاب الهلال، العدد ٥٢٥، سبتمبر ١٩٩٤ - دار الهلال القاهرة
- ٩١ - ياسر بكر، «شعب من الأوز» .. مقدمة في علم اللغة الاجتماعي، E. Book - القاهرة ٢٠٢٠.
- ٩٢ - د. ليلى عنان، الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة: كتاب الهلال رقم ٥٠٠ أغسطس ١٩٩٢، القاهرة ١٩٩٢
- ٩٣ - د. ليلى عنان، الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير، كتاب الهلال، العدد رقم ٥٦٧، القاهرة - مارس ١٩٩٨
- ٩٤ - د. ليلى عنان، الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ، كتاب الهلال رقم ٥٧٤ أكتوبر ١٩٩٨ - القاهرة ١٩٩٨
- ٩٥ - دنللي حنا، مصر العثمانية والتحولات العالمية ١٥٠٠ - ١٨٠٠ هـ، ترجمة مجدي جرجس، المركز القومي للترجمة - عدد رقم ٢٨٠٥، الطبعة ١ - القاهرة ٢٠١٦
- ٩٦ - نابليون بونابرت، مذكرات نابليون.. الحملة على مصر، ترجمة: عباس أبو غزالة، المركز القومي للترجمة، العدد ٢٣١٨ - القاهرة ٢٠١٩
- ٩٧ - ياسر بكر، «الثقافة الشعبية» .. وتشكيل العقل المصري، E. Book - القاهرة ٢٠٢١ .
- ٩٨ - د. خالد فهمي، كل رجال الباشا .. محمد على وجيشه وبناء مصر الحديثة، ترجمة: شريف بونس، ط ١، دار الشروق - القاهرة ٢٠٠١

.. وصناعة «الإنسان ذو البعد الواحد»

- ٩٩ - مارتن ريز، ساعتنا الأخيرة (إنذار من عالم)، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، دار العين للنشر ط ١، القاهرة ٢٠٠٦
- ١٠٠ - د. مصطفى عاشور، الميكروبات والحرب البيولوجية، منشأة المعارف - الإسكندرية ٢٠٠٥
- ١٠١ - د. ف. م. برنت، رحلة الإنسان مع الفيروس، ترجمة: د. سعد الدين عبد الغفار، وكالة الصحافة العربية - القاهرة ٢٠١٩
- ١٠٢ - د. سيف النصر أبو سنيت، المحاضرة العاشرة، الكوليرا - وزارة المعارف العمومية - القاهرة ١٩٤٨
- ١٠٣ - ياسر بكر، أخلاقيات الصورة الصحفية، حواس للطبع والنشر - القاهرة ٢٠١٢ .

الرسائل العلمية :

- ١ - جهاد صالح عبد اللطيف سلامة، الأبعاد الاجتماعية السياسية في التطوير الحضري لأحياء الفقراء، أطروحة لنيل درجة الماجستير في هندسة التخطيط الحضري الإقليمي - جامعة النجاح الوطنية- نابلس، فلسطين ٢٠١٠

الدويات العلمية المُحكَّمة :

- ١ - مقال إدريس مقبول بعنوان : «المدينة العربية الحديثة.. قراءة سوسيو لسانية في أعراض مرض التمدن»، مجلة عمران، للعلوم الاجتماعية والإنسانية .. مجلة فصلية محكمة يصدرها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد ١٦، المجلد الرابع، ربيع، الدوحة ٢٠١٦
- ٢ - مقال فتحي محمد مصيلحي، المدينة العربية وتحديات التمدن في مجتمعات متحولة : القاهرة الكبرى مثلاً، مجلة عمران فصلية محكمة يصدرها المركز العربي للأبحاث ودراسات المستقبل، العدد ٢٠، م ٥، - الدوحة - ربيع ٢٠١٧
- ٣ - مقال د. كامل الكناني، بعنوان :«تخطيط المدينة العربية الإسلامية .. الخصوصية والحدائق»، مجلة المخطط والتنمية، مركز التخطيط الحضري والإقليمي للدراسات العليا - جامعة بغداد، دورية محكمة نصف سنوية، العدد ١٥ - ٢٠٠٦

فهرس الكتاب :

الموضوع الصفحة

٧ المقدمة

- الفصل الأول:

العمران .. اللغة .. الثقافة ..

٤١ وتشكيل العقل المصري

- الفصل الثاني:

مجتمع: «الفرجة» .. وصناعة

١٠٩ «الإنسان ذو البعد الواحد»

- الفصل الثالث :

١٧٧ ثقافة «الشرح» .. وشرح الشخصية

كتب للمؤلف :

- ١ - حكايات تافهه جداً (مجموعة قصص قصيرة) .
 - ٢ - ON LINE .. الإعلام البديل (دراسة) .
 - ٣ - حنظلة .. صديقى رئيس التحرير (رواية صحفية) ..
 - ٤ - أخلاقيات الصورة الصحفية (دراسة) .
 - ٥ - صناعة الكذب (دراسة) تتناول أشهر القصص المفبركة فى الصحف المصرية .
 - ٦ - حرب المعلومات (دراسة) .
 - ٧ - المذكرات .. و «القتل النظيف» (دراسة) .
 - ٨ - حكايات من زمن الخوف - ثلاثة أجزاء - (شهادة على العصر ١٩٥٤ - ٢٠١٤) .
 - ٩ - لمصر .. لا للأقباط (دراسة فى أحوال الجماعة الوطنية) .
 - ١٠ - فئران المركب (دراسة فى التاريخ الاجتماعى) .
 - ١١ - «شعب من الأوز» .. مقدمة فى علم اللغة الاجتماعى (دراسة)
 - ١٢ - «الثقافة الشعبية» .. وتشكيل العقل المصرى (دراسة)
 - ١٣ - مجتمع «الفرجة» .. وصناعة «الإنسان ذو البُعد الواحد» .. (دراسة)
-

النسخة الرقمية على الرابط :

<https://hekiattafihahgedan.blogspot.com>



** هذا الكتاب مقدمة إجمالية لدراسة موسوعية تتجاوز حدود التخصصات، وتتخطاها إلى الفضاء المعرفي الواسع بمختلف معطياته، ووسائطه المتداخلة في مقاربة بين المادي، وغير المادي من دوافع «التغيير الاجتماعي» من خلال البحث في ثلوث العلاقات الوثيقة بين العمران الذي لا يتكلم لغة أهله، وفساده وتشوهاتة في المجال البصري الواسع باعتباره جملة بصرية مفيدة تصب في خطاب يغذي حالة الارتباك اللساني بنتوءات لفظية تعبر عن سياقات اجتماعية مختلة تدعم التدهور الثقافي المتمثل في «ثقافة الفقر» التي حولت المواطن المصري إلى مسخ من «هجين ثقافي» يعيش على هوامش ثقافتين ومجتمعين، لكنه ليس عضواً كاملاً في أحدهما؛ فالهامشية ثقافة فرعية تختلف عن الثقافة المهيمنة .. يرى بعض الأنثروبولوجيين أن الجماعات الهامشية هي جماعات قبلت قيم الثقافة المهيمنة لكنها عجزت عن وسائل تحقيقها، أو منعت من ذلك بفعل عوامل الاستبعاد الاجتماعي، وأعراض «التفكك الاجتماعي»، وضعف «آليات الضبط الاجتماعي»، وأثارها التي خلفت «مجتمع الفُرجة»، وصناعة «الإنسان ذو البعد الواحد» .

ياسر بكر

E. Book